

## الفتوح

فى سبع سنين قصار فتح العرب كل ما اقتحموه من بلاد الفرس والروم..

فتقوضت فى الشرق دولة الأكاسرة، وتداعت فى الشمال والغرب دولة القياصرة، وزال سلطانها من الشام وفلسطين ومص وإفريقية الشمالية، وشغلت بنفسها زمانا عن الفاتحين وما فتحوه. عجيبة من أعظم عجائب التاريخ.

لا ييرح المؤرخون حتى أيامنا هذه يأتون فى تعليها كل يوم بعلل جديدة، ويفيضون فى شرح السوابق واللواحق على النحو الذى يفسر العجب بالمألوف، ويرد الدهشة إلى قرار البحث والتدليل.

وهو جهد لا تعرض له فى هذا الكتاب، ولا يلزما هنا أن نستقصيه ونحاول البت فيه.

إنما يعنينا منه واحد هو تقدير عمل خالد، وتقدير الكفاية التى تضطلع بذلك العمل، وليس تقدير ذلك بعسير ولو بقى التاريخ متشعب اللسان فى استقصار علل الهزائم التى نزلت بالفرس والروم.

فالأسباب التى قضت على الفرس والروم بالهزيمة - كائنة ما كانت - ليست هى الأسباب التى قضت العرب بقيا دولة وانتشار عقيدة، لأن استحقاق أناس للزوال لا ينشئ لغيرهم حق الظهور والبقاء.

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس والروم لأنهم عرب وكفى، ولم تكن المسألة فى لبابها كفاحا بين الأجناس والعناصر بها لها من المزايا وما فيها من العيوب.

فقد كان فى أرض الدولتين عرب كثيرون يدينون لهما بالطاعة وينظرون إليهما نظرة الإكبار والمهابة، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة

المسلمين عددا وأمضى سلاحا، وأقرب إلى ساحات العراق والشام من أولئك النازحين إليها من جنوب الجزيرة العربية.

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام المسلمين وهم كذلك أوفر في العدد والسلاح، وأغنى بالخييل والإبل والأموال. فهي نصرة عقيدة لا مرء.

وينبغي أن يذكر المؤرخون هذه المسألة من جايها ولا يقصروا النظر فيها إلى جانب واحد..

فاستحقاق النظم القائمة للضياع هو في وقت واحد سبب ضياعها، وهو حجة العقيدة التي تخلقها وتتصر عليها في ساحة النزاع إذ كان ادعى الدواعى لظهور عقيدة جديدة أن النظم القائمة قبلها لا تماسك ولا تصلح لحماية ذمارها.

فإذا قيل إن العقيدة الجديدة فقد انتصرت لتداعى (١) النظم التي اصطدمت بها فليس هذا تعليلا وكفى، ولكنه كذلك شفاعة وحجة للظهور، ودليل على أنها حق صالح كأصلح الحقوق الكونية، وأنها علاج عالمي مطلوب جاء في الأوان.

لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغنى عن كل قول.

أفكل مناضل متذرع متذرع بالعقيدة في تلك الآونة تنصار؟ ينبغي أن يكون الأمر كذلك لو كان تعليل النصر بالعقيدة معينا عن كل تعليل..

ولكن الواقع أن الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالا أولى خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائها وقد أفلح أناس وأخفق آخرون.

---

(١) تداعى النظم: تهاويها وانحلالها.

فانهزم عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة حيث انتصر خالد فى اليمامة . .

وخرج خالد وعباض بن غنم لفتح العراق من طرفيه فى وقت واحد، فسار خالد من نصر إلى نصر ومن توفيق إلى توفيق . ولبث عياض يتردد ويقدم خطوة ثم يحجم أخرى حتى أدركه خالد بالمعونة فى دومة الجندل . .

وسبق خالد بن سعيد خالد بن الوليد إلى الشام فغرر به الروم حتى استدرجوه إلى مرج الصفر فأوغل وراءهم، ولم ينتظر حتى تدركه أمداد الخليفة التى أرسلها إليه تباعا بقيادة عكرمة بن أبى جهل والوليد بن عقبة وذى الكلاع الحميرى، فأحدثت به جحافل الروم وأوشكت أن تلتف به من ورائه، ولولا يقظة الخليفة وتلاحق أمداده فى أوقاتها لقضوا عليه . .

فلا انحلال الدولتين الفارسية والرومانية بمعن عن الاعتراف للعقيدة المنشئة بحقها فى الغلب وحاجة العالم إليها فى تلك الآونة ولا العقيدة المنشئة بمعينة عن فضل رجالها وحماتها، وكفاية سواسها وقادتها . .

فهى عقيدة منشئة يزود عنها حماة قادرون، وكان خالد بن الوليد فى طليعة هؤلاء الحماة .

سبقه اسمه إلى أطراف الدولتين فحارب أعداءه بهيبته قبل أن يحاربهم بسيفه، وكانت هذه أول مزية لاختياره أول فضل يحسب له فى ميزانه، ويضاف إلى قيادته، ويعمل عمله فى نفوس أعدائه كما يعمل عمله فى نفوس أتباعه . .

قال صاحب دومة الجندل حين سمع بمسيره إليه . " أنا أعلم الناس بخالد . لا أحدا طائراً منه<sup>(١)</sup>، ولا أصمد فى حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوباً أو كثروا إلا انهزموا عنه . فأطيعونى وصالحوا القوم . . "

(١) أيمن طائراً: أكثر بركة وأسد قالاً .

وكان الرجل من العرب يعيش في الشام ويهجر موطنه الأول ولكنه يسمع باسم خالد ويتلقى أنباءه من وراء المهامة<sup>(١)</sup> والدورب، فما هو إلا أن ينضوى إليه حتى يوقن بيمن طائره، ويسرع إلى طاعة أمره، بأنه لا يأمر الأمر إلا وهو قادر على إنجازه. كما قال الشاعر الفارس عمرو بن العمد:

إذا قال سيف الله كروا عليهم      كررت بقلب رابط الجأش صارم

ويتناقل الرواة قصة لقائد من قادة الروم لا تقل فيها دلالة الخيال عن دلالة الحقيقة، إن كانت القصة من توليد الخيال. . قيل إن قائدا من قادة الروم اسمه جورج برز له في أكبر وقائع الشام وسأله: أحق أن الله أنزل على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمنهم؟

قال خالد: لا..

قال: فبم سميت سيف الله؟

قال: تابعناه. فقال أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله. فأنا من أشد المسلمين على المشركين.  
وكل هذا شبيه بأن يكون.

فإن لم يكن نبأ خالد قد وصل إلى كل عدو من أعدائه فالذى لا ريب فيه أن أتباعه كانوا على علم بنبئه فكانوا على ثقة بسداد رأيه ومضاء عزمه، وكانوا يطمثون إليه فيعلمون معه عمل المطمثن إلى نجاح سعيه، وهذا هو فضل القيادة الصالحة في نفوس الأتباع.

خرج خالد وزملاءه للقاء الفرس والروم بعد وفاة النبي عليه السلام بسنة واحدة، وبعد حروب طالت في الجزيرة العربية عدة سنين فلو كانت الفتن وموت الزعماء قاضية على كل أمة كيفهما كان السبب وكانت البيئة

(١) المهامة: جمع مهمة، وهي المفازة البعيدة والبلد المتفر.

لكان مصاب العرب كمصاب الفرس والروم فى تلك الأعوام: فتن وفتن،  
ونبى مات وملك قتل وقيصر شاخ. فهؤلاء فى العلة سواء.

لكن حركة العرب حركة إنشاء ونماء.

وجسم الفتى اليافع مضطرب لا يستقر على حال

وكذلك جسم الهرم الذاهب، ولكن شتان ما بين اضطراب واضطراب.

كانت علل الفناء قد اصطلحت على بنية الدولة الفارسية يوم قصد خالد

إلى تخومها من ناحية السواد<sup>(١)</sup>.

وكانت علل مثلها - وإن كانت أخف منها - قد اصطلحت على بنية

الدولة الرومانية الشرقية، يوم قصدها زملاؤه القواد من شتى نواحيها قبل

الشام والبقاء. وهذه خلاصة وجيزة عن الحالة يومئذ فى الدولتين:

يقول شراح الحضارات إن الحضارة تبتدئ بمعنى روحى قليل المظهر، ثم

تنتهى إلى مظهر ضخيم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقيه من المعانى

الروحية..

وهذه هى الحالة التى كانت عليها دولتا الفرس والروم عند اصطدامها

بالدعوة الإسلامية فى نهضتها الأولى.

ففى بلاد الفرس خفت صوت الدين ومضى على ظهور "زرا دشت"

مصلحهم الدينى الكبير زهاء أربعة عشر قرناً، فرث الصالح من مذهبه<sup>(٢)</sup>

وازداد الطالح سوءاً<sup>(٣)</sup> على سوء.

وخلف فى بيت الملك امرأة ضعفاء بعد آبائهم الأقوياء فشغلوا بالنزاع

---

(١) السوادى: سواد المدينة: ما حولها من القرى والريف، ومنه (سواد العراق، أى ما بين

البصرة والكويت وما حولهما من القرى والديساتر.

(٢) رث: من رث الثوب، إذا أدركه البلى. (٣) الطالح: السيئ.

بينهم واسقطوا هيبتهم في بلاهم وغير بلادهم ونهكوا قوة الدولة في فتن  
وبيلة وخيمة، وترف أويل وأوخم. وما برحوا في طغيانهم وتهافتهم حتى  
ولى الملك أردشير، فرأب صدعه<sup>(١)</sup>، وأوشك أن يعيده إلى سابق مده،  
وتركه في القرن الثالث للميلاد وهو موحد بعض التوحيد بالقياس إلى ما كان  
عليه قبل ذلك من التفرق بين العشائر والرؤساء.

ثم نكس النكسة الأخيرة، وشاع فيه الفساد علوا وسفلا قبيل ظهور  
الدعوة الإسلامية. وكان الملك المعاصر للنبي عليه السلام كسرى أبرويز، فثار  
به ابنه شيرويه، فقتله ونكل بذوى قرياه، وأعقب طفلا صغيراً فلم يلبث أن  
قال وتولى بعد قائد الجيش شهر يزار، فنفس عليه القواد<sup>(٢)</sup> والعظماء منزلته  
المغصوبة فقتلوه وولوا عليهم بوران بنت كسرى أبروير، فلم تتم في الملك سنة  
وبضعة أشهر حتى ماتت، وخلفها فتى من بنى عمومته الأبعدين، ثم قتل  
وخلفته بنت أخرى لكسرى أبروير فقتل، وقتل من بعدها، إلى أن تولى الأمر  
يزدجرد بن شهويار والدولة ترتج من فرط الإعياء.

ومنيث<sup>(٣)</sup> في أيامها الأخيرة بضربة قوية في حروبها الخارجية: وهى  
غلبة الروم عليها، وانتزاع مصر والشام مها، ورد حدودها إلى دجلة والفرات  
بعد أن طلعت على حدود آسيا الصغرى، وقبل هذا منيت بضربة دون هذه  
الضربة في القوة والضحامة، ولكنها أشد منها أثراً فيما نحن بصده من  
أحوال الدعوة الإسلامية: وتلك هى ضربة الهزيمة "بذى قار"<sup>(٤)</sup> التى تقدم  
وصفها فى أول هذا الكتاب. فإن هذه الهزيمة أطمعت فيها العرب بعد مخافة  
وهيبة، ولاسيما العرب المقيمين بجوار ذى قار وأرباض السواد، ومنهم جند  
خالد وزملائه الذين تقدموا لمنازلة الفرس فى العراق..

(١) رأب صدعه: أصلحه بعد تصدع.

(٢) نفس عليه منزلته: حسده ولم يره أهلاً لها.

(٣) منيت: ابتليت. (٤) بذى قار: أرجع إلى ص ١٠.

وساءت من جراء ذلك كله شئون الأمة في الديار الفارسية، فتهالك العلية<sup>(١)</sup> على المظاهر وانغمسوا في الشرف، واستكثروا من النفائس والأموال، وشغلوا عن سواد الأمة<sup>(٢)</sup> فشحاع بينهم الفقر والضحك والتذمر وبعض الحكام، ولم يعلموا فيهم هم مسوقون، وعلى أى شىء يقاتلون ويتفانون. وهى حال تؤذن بالتصدع والانهيال لأول صدمة نهر الأركان والجدران.

ومن أعجب العجب أن بظن رجل كالمعيرة بن شعب لدلالة هذه الحال، وهى معدودة فى عصرنا من دروس وعلوم الاجتماع والتاريخ التى لا يصل إليها الباحث إلا بعد مقارنة وإطلاع واسع مستفيض، ولكنه العجب الذى يفسر لنا ما هو أعجب منه وهو وفرة نصيب العرب يومئذ من أقطاب الرجال ذوى الخنكة والنظر البعيد، وأنهم قد ظفروا لأنهم كانوا على أهبة فى هذا الباب حرمتها كلتا الدولتين، على كثرة من بهما من الزعماء أصحاب المظاهر والشارات<sup>(٣)</sup>.

دخل المغيرة بن شعبه على رستم بطل الفرس المشهور فى التواريخ والأساطير فجلس معه على سريريه، فاستكبر أعوانه هذه الجرأة من ذلك البدوى "المغرور" واجتذبه من مكانه على السرير فى عنف شديد. فما اهتز المغيرة ولا استكان ولا زاد عن أن قال: لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام<sup>(٤)</sup> ولا أرى أسفه منكم. إنا معشر العرب لا يستبعد بعضنا بعضا، فظنت أنكم منكم تواسون قومكم كما تتواسى - أى تتساوى - فكان أحسن من الذى صنعتموه معى أن تخبرونى أن بعضكم أرباب<sup>(٥)</sup> بعض. إن هذا الأمر لا يستقيم فيكم

(١) العلية: سادة القوم وأشرفهم. (٢) سواد الأمة: عامة الشعب.

(٣) الشارات: جمع شارة وهى اللباس والهيشة، ويراد بها هنا لباس الأبهة والقلائل والنياشين. (٤) الأحلام: العقول.

(٥) أرباب: جمع رب، يعنى أن بعضهم سادة وبعضهم عبيد.

ولا يصنعه أحد. وإنى لم أتكم ولكن دعوتونى... اليوم علمت أنكم مغلوبون، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول؟ كلمات من ذهب...

لو كان فيمن سمعها من الفرس من يضارع المغيرة لقال فى جوابه: "واليوم علمنا أنكم غالبون، وأن أحق الملك أن تقوم له قائمة لهو الملك الذى قوامه<sup>(١)</sup> من هذه السيرة وهذه العقول".

على أن الأمم لا تقفر من الأحلام كل الإقطار فى أظلم ظلمات الجهالة والإدبار، فقد وزن "يزدجرد" شأن العرب والفرس بالميزان الصحيح حين قال لرستم: "إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب<sup>(٢)</sup> أوفى على جبل تأولى إليه الطير بالليل، فتبيت فى صفحه فى أوكارها. فلما أصبحت تجلت<sup>(٣)</sup> الطير فأبصرته يرقبها، فإن شذ منهما شىء اختطفه. فلو نهضت نهضة واحدة رده، وأشد شىء يكون فى ذلك أن تنجو كلها إلا واحداً. وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت، فلهذا مثلهم ومثل الأعاجم".

وصف صادق من جملة أطرافه.

وعلامه من علامات الانحلال أن لا ينفع الوصف الصادق ولا يهدى العارفين به إلى رأى متفق عليه، كما يعرف المرض ولا ينتفع بعرفانه فى العلاج إذا شارف الجسم الفناء<sup>(٤)</sup>. ولهذا اتفق يزدجرد ورستم على الصفة ولم يتفقا على العمل النافع مع العرب، فافترقا مختلفين.

وكما بقيت فى أهل فارس يومذاك مسكة من حلوم<sup>(٥)</sup> بقيت لهم كذلك

(١) قوامه: عماده وأساسه.

(٢) العقاب: طائر من كواسر الطير، والمشهور أن لفظه مؤقت ذكره كان أم أنثى.

(٣) تجلت: انكشفت. (٤) شارف الفناء: أشرف على الهلاك.

(٥) مسكة من حلوم: السكة (بضم أليم) الأثر والبقية، والحلوم: العقول.

مسكة من مرءوة الفرسان، أو على الأصح مسكة من المراسم والمأثورات الحربية، وهم أولع أمة بالمراسم والمأثورات كافة.

وهذه المسكة شرف للقادر، ولكنها بلاء على العاجز المتخاذل، كأنها الوثبة التي تعجل بالهلاك إن وثبها المريض الهزيل، وإنها في الأقوياء لمعوان على المجد والطموح.

فربما أقدموا على القتال وهم يحسبون أنهم مقدمون على مباراة في حلقة صراع، ينظرون عدوهم حتى يصل إليهم كما ينظر المصارع نداه حتى بأحد، بعضديه في أمان.

ففي وقعة الجسر<sup>(١)</sup> أقبل بهمن جاذويه ومع راية الفرس الكبرى من جلود النمر طولها عشر أذرع وعرضها ثمان، وبين يديه جيش يربو المسلمين مرات. فأرسل إلى أبي عبيد قائد المسلمين يقول له: إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تخلوا بيننا وبينه<sup>(٢)</sup>. فتعجل أبو عبيد وعبر النهر على جسر نصبوه، والفرس ينتظرون.

مثل هذه المراسم جهل بحقيقة الحال، وحقيقته أنه صراع حياة وموت بين أمتين، وليس بحلبة سباق أو حلقة رهان بين لاعبين في ملهاة.

أما دولة الرومان الشرقية فقد كانت في حال لا تفضل حال جاريتها وعدوتها في محنة العقيدة ومحنة النزاع على الملك والولاية، ضرب المثل بالجلد البيزنطي في التاريخ القديم والحديث من جزاء الخلاف على المذاهب الدينية في الدولة الرومانية الشرقية، وكان معظم أبناء الولايات من النساطرة واليعاقبة يخالفون مذهب الدولة الرسمي ويمقتون رجاله ويرمونهم بالهرطقة

(١) وقعة الجسر: وقعة بين العرب والفرس في السنة الثالثة عشرة للهجوم، استخدم فيها الفرس الفيلة، وهزم فيها العرب وكانوا تحت قيادة المشي بن حارثة وأبي عبيد بن مسعود.

(٢) تخلوا بيننا وبينه: تركونا نعبه، يقال (خلى بينهما) أى تركهما مجتمعين.

والوثنية، وكان القائلون منهم بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح أقرب إلى الإسلام منهم إلى المسيحية.

وابتذل عرش الملك بالقتل والاعتصاب فضعف الولاء له في نفوس العلية وقواد الجيش. وقد استقر الأمر زمنا للقيصر هرقل الذي حضر عهد النبي عليه السلام، ولكنه شقى بالفتن في أخريات عهده، وركبته الوسوس في شيخوخته، ولاسيما بعد بنائه بنت أخته<sup>(١)</sup>، فاعتقد أنه مغضوب عليه مستحق لعقاب السماء.

ومن كان من الرعية ذا دين غير المسيحية فهو ساخط ناغم كاليهود والوثنيين. . لأن رؤساء الكنيسة والدولة اتهموهم غير مرة بالتواطؤ على فتح البلاد مع المغيرين عليها من الفرس والبرابرة، فأثخنوا فيهم قتلا وتشريدا حتى قيل إنهم كانوا يفتكون في المذبحة الواحد بعشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال.

وعاشت في ظل الدولة الرومانية قبائل غسان وجذام وكلب وتنوخ وغيرها من قبائل العرب فكانت تعينها وتستعين بها على منافساتها من قبائل المناذرة في الحيرة. ولكن غلبة الفرس تارة وغلبة الروم تارة أخرى على تلك البقاع ضيع الثقة بالدولتين، وهيا نفوس العرب لقبول الدعوة جديدة ولاسيما الدعوة التي تأتيهم من أبناء جنسهم في الجزيرة العربية، وبها اعتزازهم على العجم كافة من فرس وروم. واتفق في تلك الفترة انقطاع الهبات التي ان رؤساء العشائر يتلقونها من قيصر الدولة وولاتها، فبرموا بها وودوا لو انقلبوا عليها ساعة يأمنون كيدها ويوثقون الصلة بينهم وبين خصومها.

ويؤخذ من رسالة فيجيتيوس "Vegetivs" في علم الحرب أن نظام الجيش الروماني في الغرب والشرق كان قد تعاوره الخلل قبل ظهور الدعوة

(١) بعد بنائه بنت أخته: بعد أن تزوجها.

المحمدية بأكثر من قرنين. ففي هذه الرسالة يقول فجيتيوس الذى يعدونه إمام أساتذة الحرب بين الغربيين إن "اللجيون"<sup>(١)</sup> قد وهن واضمحل ويذكر من أسباب وهنه واضمحلاله أن مناصبه الكبرى أصبحت تمنح للمحابة والصنعة بعد أن كانت وفقا على الكفاية والخدمة الطويلة، وإن عامة جنوده يهربون منه ويؤثرون الخدمة فى الفرق المتطوعة لأنهم يستثقلون تمريناته وأسلحته ويستقلون جزاءه ويضيقون ذرعا بوطأة نظامه.

وقد أتاحت للرية فى الشام والبقاء فرصة حسنة للمقارنة بين حكم العرب وحكم الرومان قبل الوقائع الفاصلة التى دارت فيها الدائرة على الجيوش الرومانية. فقد كان رجال الجيش الرومانى يهبطون المدينة فينهبون بيوتها وغلاتها، ويستبيحون أعراضها ويهتكون حرمتها، ويسكرون ويعربدون، فلا يأمنهم أحد مطموع فى ماله أو غير مطموع منه فى شىء على الإطلاق، وإنما هى العريضة والضراوة والاستحقاق. ثم جاءهم قوم لا يعتدون على عرض ولا يقربون الخمر ولا يعفون عن يقربها منهم ولو كان من عليتهم، ويقيمون فى المدينة ثم يرحلون عنها فيردون الجزية إلى أهلها لأنهم إنما أخذوه لحمايتهم وحمايتها. فكانت المقابلة بين الحكيمين مدعاة إلى التراخى فى الدفاع عن الحكم القديم، وتمنى الغلبة للحكم الجديد. وقد تتجاوز ذلك إلى المساعدة الظاهرة كما حدث من بعض العرب المسيحيين والوثنيين على السواء.

بل ربما تجاوزت كل هذا إلى إزعاج ثقة القادة بأنفسهم عند المقابلة بينهم وبين قادة خصومهم. . فمما يروى فى هذا المعنى وهو كثير أن أخا القيصر وقادة سأل رجلا من قضاة عن شأن المسلمين بعدما أقام بينهم أياما فقال ل: "هم رهبان بالليل، فرسان بالنهار، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى

---

(١) اللجيون: اسم كان يطلق فى روما القديمة على فرقة من الجيش قوامها بضعة آلاف من المشاة ويضع مئات من المدفعين.

رجموه إقامة للحد: ". فقال القائد: "لئن كنت صادقاً لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها"

ولما بدأت المعارك بين العرب والدولتين كان العرب ربما أخطئوا فلم يضربوا ضربتهم في موضعها، فيتسع لهم الوقت لإصلاح الخطأ والرجوع إلى الخليفة لطلب النجدة والمشورة، لأن أعداءهم مشغولون أبداً بنزاع أو فتنة أو ريبة. أما الروم والفرس فلم يكن لهم متسع لإصلاح خطأ يخطئونه وكثيراً ما كانوا يخطئون. فبدأت المعارك بين الفريقين وعند أحدهما كل مظاهر الأسباب التي تدعو إلى النصر، وعند الآخر كل حقائق الأسباب التي لا تدعو إليه.

وقد اتفقت كلمة الصحابة على حرب فارس والروم، وسيف الله بوادي الوبر في اليمامة لم يطل استقراره في غمده بعد وقعة عقرباء.

وهناك حلقات من الحوادث تسوخ لنا أن نعتبر حرب فارس الثانية امتداداً للوقعة الأولى بذى قار، أو استئنافاً لتلك الوقعة بعد فترة لا تحسب طويلة في تواريخ النزاع بين الأمم، وهي نيف وعشرون سنة.

فالقبايل التي ارتدت بالبحرين وقبائل تغلب التي انحدرت مع سجاح من الجزيرة كانت كلها من أتباع الدولة الفارسية على صورة من صور التبعية في ذلك الزمان، وكانت تعيش كلها في ظل تلك الدولة من أيام المناذرة إلى ذوال ملكهم بعد وقعة ذى قار والبطلان اللذان تعودا ضرب الفرس والإغارة على دهاقينهم<sup>(١)</sup> في تلك الأصقاع كانا من بنى بكر الذين نهضوا بالعبء الأكبر في وقعة ذى قار، وما برح العداء بينهم وبين الفرس والقبايل التي تواليهم على أشد ما يكون: وهما المثني بن حارثة الشيباني وسويد بن قطبة العجلي. وكلاهما على ذكر<sup>(٢)</sup> من هزيمة الفرس وعلى خبرة بقتالهم في

(١) الدهاقين: جمع دهقان (بضم الدال) وهو رئيس الإقليم أو القوى القادر على التصرف، أو صاحب المال والعقار.

(٢) على ذكر: يضم الدال أو كسرهما، أى أن الأمر فى باله لا ينسأه.

أطراف العراق. وقد سحب المثنى النهر في غاراته حتى بلغ القطيف وهجر لم يقف له أحد في طريقه. فهذا مع عجز الفرس عن تأديب رعاياهم في اليمن لدخولهم في الإسلام فضا على تردد الخليفة في أمر البعثة الفارسية، فصحت عزيمته أصحابه على تجريدها بعد الفراغ من حروب الردة بأسابيع معدودات.

وقد علمنا من دأب الخليفة الصديق أنه كان لا يبرم أمراً إلا أحكم تدبيره مرحلة مرحلة من أول طريقه إلى منتهاه.

وهكذا كان شأنه في البعثة الفارسية: فإنه تدب لها قائدين هما خالد بن الوليد، وعياض بن غنم، وأمر خالد أن يتجه إلى الأبله ثغر الهند كما سماها، وأمر عياض أن يتجه إلى المصيخ بشمال العراق. فأيهما بلغ الجزيرة قبل الآخر كما هو قائد الجيشين معا ووجبت طاعته على زميله، وقال لهما: "إذا اجتمعتما بالحيرة وقد قضضتما مسالح فارس<sup>(١)</sup> أمتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحدكما رداء للمسلمين ولصاحبه، وليقتحم الآخر على عدة الله وعدوكم من أهل فارس دارهم"

خطة محكمة يبلغ بها الخليفة مقاصد شتى في وقت واحد ففيها إذكاء<sup>(٢)</sup> المنافسة بين القائدين، وفيها تشتيت جهود الفرس في الدفاع عن بلادهم. وفيها تدبير النجاة سلفاً لمن يحتاج إليها من الجيشين، وفيها تيسير أمر الماء والكلأ في الطريق للجيشين معا، لأن أمواه الطريق ومراعيه تضيق بالجيشين المجتمعين سارا في طريق واحد.

---

(١) قضضتما مسالح فارس: المسالح: جمع مسلح أو مسلحة، وهو كل موضع يقف فيه الجند بالسلح للمراقبة والمحافظة. وهو أيضا القوم المسلحون في ثغر أو مخفر للمحافظة. وقوله (قضضتما): أى فرقتما وكسرتما.

(٢) إذكاء: أشعال.

وكان الصديق وإخوانه يعلمون أن المسألة في هذه الحرب مسألة يقين وعزيمة وليست كثرة وهيئة . .

فحرص لهاذ على أن يجنب الجيوش الإسلامية مخاوف وألا يكرها أحدا من غير المرتدين على المسير في جيشهما ما يقبل على الحرب برضا منه ورغبة. ولما نظر خالد إلى من حوله يرفض كثيرهم ويبقى قليلهم كتب إلى الخليفة يستمده، فأمدّه بفارس واحد هو القعقاع بن عمرو التميمي . . فعجب أصحابه وقالوا له: أتمده برجل واحد؟ . . قال: نعم! . . لا يهزم جيش فيهم مثل هذا!

ولم تمض أيام حتى ظهر للمسلمين أنه مدد كاف، وأى كفاية، فإن ثقة الناس بجيش يكون القعقاع فيه ويتولى قيادته خالد بن الوليد قد جاءت بالمتطوعين للقتال من كل صوب وحذب<sup>(١)</sup> فبلغ جيش المشي بن حارثة وهو يبلغ ثمانية آلاف. ولم يتقدم المسلمون خطوة في ميدان القتال حتى كانت للقعقاع وقفة لعلها أنقذت الجيش كله وأنقذت البعثة كلها من بدايتها، ولم يكن أحد ليعلم ماذا تكون العاقبة لولا تلك الوقفة التي تعلق بها الكثير من مصير جيش الفرس ومصير جيش المسلمين.

ففى الوقعة الأولى دعا القائد الفارسى - هرمز - خالداً للمبارزة قبل التحام الجيشين، وأضمر نية العذر به حين يخرج منفردا مشغول بمبارزته، فإراع<sup>(٢)</sup> الجيش العربى بمقتل قائده كما سبق إلى وهمه، ويطبق الجيش الفارسى بعدده الكبير على الجيش العربى بعدده القليل فتكون الغلبة لأكبر الجيشين وأكمل العدتين . .

وأوشكت هذه المكيدة أن تتم على النحو الذى دبره هرمز، لولا أنه

(١) صوب وحذب: الصوب: الجهة، والحذب: الأرض المرتفعة . .

(٢) إراع: يفزع ويخاف .

أخطأ الحساب في اغتراره بقوته وجهله بصولة خالد في مبارزته، فظن أن الجولة بينهما تطول قبل أن يخرج فرسانه للغدر بخالد، ولكنه صرع في جولة واحدة، وفوجئ أصحابه بهذه السرعة فاقربوا من خالد على عجل وهو مشغول بالإجهاز على قائدهم، وإذا بالقعقاع أسرع إليهم من لمح البصر، ومن ورائه جيش المسلمين بجملته يضرب في قطع مدعور مأخوذ بالمفاجأة ومهابة هذه الصولة العاجلة. فكانت وقعة اليوم وقعة ترسمت خطأها<sup>(١)</sup>، وسارت على هداها . .

سار خالد إلى العراق في أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية. وأتم في سنة واحدة ما أعمى الرومان أن يتمنوه ففي أجيال.

وقد تكتب في شرح وقعاته بالعراق مجلدات طوال يستغرق بحثها ومعارضة رواياتها<sup>(٢)</sup> مئات الصفحات، ولكننا لا نتوسع في ذلك الشرح هنا لأن أعمال خالد تعيننا في هذا الكتاب لمقصد واحد، وهو الرجوع بها إلى مصدرها من نفسه وعقله ومقومات شخصه.

وفي هذا حسبنا أن نقول على الإجمال قبل الإشارة إلى وقعاته إنه لقي الفرس وأولياءهم في خمس عشرة وقعة منها، وإن قوادا من المسلمين أخطأوا في حروب الردة وحروب الروم كما حدث من عكرمة وشرحبيط وأبي عبيد وخالد بن سعيد، ولكن خالد لم يخطئ قط عن خدعة أو عجلة أو قلة أهبة، وكان يسير بجيشه أبدا على تعبئة كاملة ليقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئا أو غير مفاجئ، وكما وصفه عمرو بن العاص: "في أناة القطة ووثبة الأسد"<sup>(٣)</sup> فلا يهمل الحيلة لا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم

---

(١) ترسمت خطأها: سلكت نفس الأسلوب.

(٢) معارضة رواياتها: المقابلة بين الروايات المختلفة للوصول إلى الحقيقة والصواب.

(٣) أناة القطة: يتأني القطة، وهي طائر كاليمامة.

والخيلة، ولا يعز عليه أن يتحامى لقاء عدوه فى بعش الساحات ليتنقل به إلى المكان الذى هو أصلح لحركاته وأعون له عليه . ومن علمه بفنون القتال أنه كان يحارب بثمانية عشر ألفاً وكأنه يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء . فإذا أرسل أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف إلى مكان يغنون فيه، فذاك أجدى من تسيير الجيش كله أو تسيير عدد منه يربو<sup>(١)</sup> على الحاجة الضرورية . . فإن طراً فى خلال مسيره ما ليس فى الحسبان فمعه فى هذه الحالة على سرعة خاطفة كسرعة الباشق<sup>(٢)</sup> وهو ينقض على فريسته، فلا شعر الفرقة التى أشخصها<sup>(٣)</sup> إلى مكانها بالحاجة إليه حتى يكون معها كأنها لم تفارقه ولم يفارقها .

فهى شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة ومعرفة بها هو لازم فى وقت لزومه، ولم تخذله خصلة من هذا الخصال قط فى ساحات فارس ولا فى ساحات الشام مع اختلاف الميادين واختلاف لأحوال واختلاف الأعداء .

وقد كانت تعبئة خالد فى المسير تشبه التبعة التى جرى عليها العرف فى أيامه، وهى قسمة الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب وطلية تسبقه، وردء يلحق به ليحمى ظهره أو يلبث فى موضع من المواضع كميئاً ينزل إلى الساحة على غير انتظار، لتقوى به سواعد أصحابه، وتنخذل به عزائم أعدائه . . ولكنه كان عند القتال يفتن باتخاذ طريقة الهجوم أو الدفاع كما توحى بها ضرورة الساعة . فيقاتل بالصفوف كما يقاتل بالكراديس<sup>(٤)</sup>، يواجه خصمه أو يدور عليه، ويتراجع أمامه أو يمعن فى الهجوم على كبة<sup>(٥)</sup> جمعه، ويحصره أو يخلى له سبيل الهرب، حسبما تدور به المعركة فى أثنائها أو توحى به طوالها قبل ابتدائها .

(١) يربو: يزيد . (٢) الباشق: (بفتح الشين) البارى، وهو ضرب من الصقور .

(٣) أشخصها: بعث بها .

(٤) الكراديس: جمع كردوس بمعنى القطعة العظيمة من الخيل، ويقال (كرديس القائد خيله)

أى جعلها كتيبة منه .

(٥) الكبة: الجماعة من الناس فى تكديس .

فلما عقدت له القيادة على البعثة الفارسية أرسل جيشه على فرق ثلاث من طرائق مختلفة، فقدم المثنى على رأس فرقة ثم ألحق به عدى بن حاتم صاحبه فى حرب بنى أسد، ثم لحق بهم على رأس جيشه وواعدهم موضعا إلى الجنوب الغربى من البصرة الآن، ولعله توخى تسهيل السقى والمرعى بهذا التقسيم، ثم اختبار الطريق بقيادة الرجل الذى كانت له سابقة الدارية بهذه الدروب.

وكتب إلى هرمز قائد الفرس يخيره بين الإسلام والجزية أو الحرب، ويقول له فى ختام كتابه الوجيز: "جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة"، ثم عدل إلى "كاظمة" بعد أن كان مواعده الأول "الحفير" لأنها كانت على ما يظهر أوفق لتعبئة جيشه<sup>(١)</sup>.

وهناك التقى بجيوش الفرس - وعلى رأسهم هرمز - ف وقعت بينهم الواقعة التى سبقت الإشارة إليها، وتعرف باسم "ذات السلاسل"، لأن الفرس كانوا يوثقون أنفسهم فيها بالسلاسل جماعات ليثبتوا فى القتال ولا يتأتى لهم الفرار إن أرادوه، ولئن صح هذا لقد كانت مخاوف الشك فيه أظهر صدق العزيمة والطمأنينة إلى النية القوية.

ولما تبدد جيش هرمز تعقبه المثنى بن حارثة وعبر الفرات ليأخذه متفرقا قبل أن تتجمع فلوله حيث تأمن احتشاث الملاحقة وراءها<sup>(٢)</sup>، ولكن الفرس علموا بعد مقتل هرمز وتفرق جيشه أنهم مهددون فى "المدائن" عاصمة ملكهم، فحشدوا لملاقاة المسلمين جيشا عظيما بقيادة قارن بن قاريانس يعاونه أميران من بيت أردشير. فأدرك فلول هرمز فى "المدار" وضمتهم إليه، وكان المثنى قد علم بخروج هذا الجيش العظيم واجتماع الفلول المتفرقة إليه فكتب إلى خالد يستأمره ويستمده<sup>(٣)</sup>. فكان خالد هو الجواب.

(١) أنظر الخريطة للتعرف على أسماء الأماكن والمواقع.

(٢) احتشاث الملاحقة: الملاحقة: المطارد، والاحتشاث: من الحث، أى شدة القلب.

(٣) يستأمره: يطلب أمره، ويستمده: يطلب المدد.

ووصل خالد إلى المذار وهو كامل التعبئة فتصدى قارن لمبارزته على عاداتهم قبل بداية القتال، فنهض إليه خالد ومعقل بن الأعشى يستبقان، وأراد معقل أن يحمى خالداً من مثل مكيدة هرمز فيتلقى الضربة دونه أو يسبقه إلى قتل قارن. وبرز عدى بن حاتم وعاصم بن عمر لمنازلة الأميرين، فظفروا بهم جميعاً، ثم اشتبك الفريقان في ملحمة حاربوا فيها كما قال المؤرخون حرب حنق وضغينة، وبلغ بعضهم لعدد القتلى من الفرس ثلاثين ألفاً، ولولا النهر ولياذ الفرس بالسفن<sup>(١)</sup> لكانت المقتلة أعظم من ذلك، ولم يكذب يفلت من الموت أحد.

ورانت<sup>(٢)</sup> الحيرة بعد وقعة المذار على عقول القادة من الفرس، فخيل إليهم أن في ولاء العرب سرّاً لا يدركونه وأحبوا أن يحاربوا آفتهم<sup>(٣)</sup> بأفة من جنسها، فاستعانوا بأوليائهم من أبناء القبائل العربية فيما بين النهرين، واشترك هؤلاء في كثير من الوقائع التي دارت بين الفرس والمسلمين بعد وقعة المذار، وضايقوا المسلمين غير قليل في الوقعتين، التاليتين بالواجبة وأليس.

وكان خالد كعادته في الحيلة والمبادرة، فاستبقى طائفة من جيشه في البلاد التي فتحتها حماية لظهره واستعداد لمن يجترئ عليها بعد مسيرة. وتقدم إلى الوجلة على تعبئة كاملة بمن معه جميعاً، ثم فصل طائفتين من الجيش أثناء الطريق ليكمننا على مقربة من الوجلة ويلتفيا في ساعة الحرج بالجيش الفارسي من ورائه. فطالت المدافعة والمراوغة بين الفريقين قبل أن يظهر الكمينان. وتردد النصر بين الفرس والمسلمين تارة هنا وتارة هناك حتى ظن الفرس أنهم من النصر قاب قوسين أو أدنى<sup>(٤)</sup>. ثم ظهر أحد الكمينين، وأظهر الكمين

(١) اللياذ: الاعتصام والاتجاه. (٢) رانت: غلبت وغطت.

(٣) آفتهم: الأفة: العاهة، والمراد بها هنا (المشكلة).

(٤) قاب قوسين أو أدنى: القاب: المقدار. ولا (قاب قوس) كتابة عن القرب. وفي القرآن الكريم (فكان قاب قوسين أو أدنى) أى طول قوسين.

الآخر قبل أن يفيق الفرس من دهشة الكمين الأول. فتولاهم إعياء اليأس بعد إعياء المصابرة والمجاهدة، وولوا مدبرين وهم يتخففون من السلاح والعتاد في مهربهم. . فكثر منهم القتلى والأسرى كما كثر نصيب المسلمين من الغنائم والأسلاب.

وجاءت بعد وقعة الولجة وقعة "ألينس"، وهي أعجب الوقائع في حرب العراق بما اتفق فيها من صنوف الحيلة وصروف المقادير ومعارض النقمة، وعواقب الرجاء مع الغالب، وعواقب اليأس والقنوط من المغلوب. ولعلها هي الوقعة الحاسمة في النزاع بين المجوسية والإسلام.

راع الشاهنشاه<sup>(١)</sup> تلاحق الهزائم على جيوشه، وغاظ العرب الموالين له أن يؤاخذوا في حماهم، وانفوا أن يهانوا لا يراهم الناس كفاء<sup>(٢)</sup> لتلك القبائل الواغلة عليهم<sup>(٣)</sup>، فتلاقوا في الرقعة الوسطى بين ديارهم جميعا وهي أليس، وانتظروا هناك حجاجل من الفرس وعدوهم أن تربى<sup>(٤)</sup> في العدد والعدة على كل جيش نزلوا به إلى الميدان في المعارك الماضية.

وهنا تراءى في الموقف أصبح المقادير. .

فإن "يهمن جياذرينه" قائد الفرس الذي أمر الشاهنشاه بالمسير إلى "أليس" أناب عنه قائدا آخر يدعى "جابان" وشخص هو إلى المدائن ليلقى مولاه ويلقب معه الأمر على وجوهه في مسائل شتى لا غنى فيها المراسلة غناء الحديث والمشاهدة، وليأتى من المدائن بمدد آخر يضاف إلى جيشه الأول، وإلى جموع القبائل العربية عند الفرات. وقال لجابان وهو يودعه: "كفكف نفسك<sup>(٥)</sup> وجندك عن قتال القوم حتى أحلق بك إلا أن يعجلوك".

(١) الشاهنشاه: ملك الملوك (فارسية).

(٢) كفاء: جمع كفاء وهو النظير والمائل.

(٤) تربى: تزيد.

(٣) الواغلة عليهم: الدخيلة عليهم.

(٥) كفكف نفسك: أصرفها وأبعدها.

وبلغ المدائن فإذا مولاه مريض يجود بنفسه، وليس نظام الوراثة على عرش فارس فى ذلك الحين من الوضوح والاستقرار والوراثة على عرش فارس فى ذلك الحين من الوضوح والاستقرار بحيث يطمأن إليه إذا مات الملك والجيش بعيد، والمتربصون كثر، والشيع فى البلاد أكثر من المتربصين . .

فبقى "بهمن" فى المدائن، ووصل جابان إلى "أليس" قبل أن يصل إليها خالد، فألقى أنقاله وأمر بتهيئة الطعام. ووصل خالد وهم مقبلون على طعامهم لا ينتظرون وصوله. فلبشوا على طعامهم لأنهم أمروا من جهة ألا يعجلوا إلى القتال حتى يوافقهم قائدهم الكبير، ولأنهم من جهة أخرى لم يحسبوا أن خالدًا يلقى أنقاله وهو على تعبئة كاملة مستعد للنزال فى كل لحظة، ولأنهم على ما يظهر كانوا يواجهون القتال أبدا كأنهم يواجهون ساحات الصوالج والأكرا<sup>(١)</sup> أو ساحات المباراة فى "الألعاب الرياضية": إنما تبدأ فيها المباراة باتفاق الطرفين! . .

ولكن خالدًا ضرب ضربته الأولى فى الجموع العربية فقتل قائدها وأخذ القتلى فى صفوفها، وثار الفرس إلى السلاح مكرهين لثلاث يمهلوا خالد حتى يفرغ من الجموع العربية ويتحول إليهم بين لحظة وأخرى.

فثبتت الجموع العربية حين أسعفتها النجدة، وثبت الفرس وطال بهم الثبات لعلمهم أنه صبر ساعات ثم يدرکہم قائدهم الكبير. وابتلى المسلمون من هؤلاء وهؤلاء ببلاء لم يعهدوه من القوم قبل ذلك اليوم. فاشتد الأمر بخالد وثاب إلى الله يستلهم العزم للمسلمين وينذر له الضحايا إن منحه أكتاف<sup>(٢)</sup> أعدائه، "فلا يستبقى منهم أحدا يقدر عليه حتى يجرى نهرهم بدمائهم". وفى هذا النذر بقية من البدوة المخزومية لا تخفى على اللبيب . .

(١) الصوالج والأكرا: لعبة تشبه (الجولف) والصوالج: العصى. الإكرار: جمع أكرة وهى الكرة.

(٢) منحه أكتاف أعدائه: كتابة من الأنصار عليهم.

وطال صبر الفرس فنقد.

وتساقطت رءوس العرب المواليين لهم فجزعوا..

ولاحت خالد لوائح النصر الذى سأله الله، فلم ينس نذره ونادى المسلمين: "الأسر.. الأسر.. لا تقتلوا إلا من امتنع" .. لأنه نذر ليجرين النهر.. فليجر إذن بالدماء وأمر بضرب أعناق القوم فى النهر وقد حبس ماءه. فلم يجر بالدماء! .. لأن الدماء تترقرق ولا تسيل ولو قتل أهل الأرض كما قال له أصحابه. فأطلق الماء فسأل بالدم أحمر قانيا ثلاثة أيام.

وحمادى<sup>(١)</sup> ما يقال فى الاعتذار لخالد من هذه النعمة المفردة فى تاريخ صدر الإسلام أنها كانت شرعة الحرب فى تلك الأيام، وأنه كان يدين بها<sup>(٢)</sup> أناسا صنعوا بالملل الأخرى مثل ما صنع بهم فى المعركة فى هذه المعركة، وعاملوا أسرى الحرب ومن لم يحاربوهم قط هذه المعاملة فى حروبهم مع العرب والدولة الرومانية، وأن خالد حسب أن هذه الذبائح قربان إلى الله.. ودماء المشركين أشبه القرايين بميادين الحروب، وهو حسابان يوائم صرامة طبعه، ويحبك فى صدر<sup>(٣)</sup> رجل الحرب وسليل رجال الحرب منذ أمد بعيد، وأكبر الظن عندنا أنه لو كان قائد الجيش رجلا عن طالت صبتهم للنبي عليه السلام كأبى عبيدة أو سعد بن أبى وقاص أو عمر بن الخطاب لتوسل إلى الله بغير هذه الوسيلة حين أزم الموقف وجد الجدد فى معركة أليس. فقد صفح عمر بن الخطاب عن أسرى السواد<sup>(٤)</sup> وظفر المسلمون بألوف الأسرى فى معارك العراق والشام ومصر فسرحوهم، وعاملوهم بحكم الأسرى فى القرآن انكريم. وقد اختلف فقهاء المسلمين فى جواز قتل الأسرى من غير مشركى العرب؛ فلم يجزه من أجازه منهم إلا لحسم مادة الفساد، إن خيف ألا تحسم

(١) حمادى ما يقال: غاية ما يحمد من القول. (٢) يدين بها أناسا: يجازيهم.

(٣) يحبك فى صدره: يؤثر فيه.

(٤) السواد: يعنى (سواد العراق) وقد سبق شرحه.

بغير هذه الذريعة<sup>(١)</sup>. وقد كانت مادة الفساد في أعقاب الدولة الساسانية خليقة - ولا نكران - بضرية من أمثال هذه الضربات، فقد أعييت فيها الحيلة من دعوة وإقناع ومصابرة، وكانت النكبة بدوام هذه الدولة أشد على الفرس ومصابرة، وكانت النكبة بدوام هذه الدولة أشد على الفرس أنفسهم من نكبة القتلى في تلك المعركة الشعواء، وهي في غرابة صروفها أدنى أن تحسب من معارك الأقدار، وتلك في المعارك التي يراد فيها الغالب والمغلوب على الأبرم، ولا يريدان فيه وقديما علمنا من طوارق الحروب والسلم أن الشر المحض والخير المحض في هذه الدنيا عزيزان أو مستحيلان. فهذه النقمة الخالدية جاءت على غير المألوف في حروب صدر الإسلام، ولكنها عجلت بختام عهد موبوء كان لا بد له من ختام، فخلعت القلوب، وصكت الركب<sup>(٢)</sup>، وزلزلت سلطان الطغاة في بلاد الفرس بل في بلاد الروم، وكان من جرائها أن الأمصار التي كانت تفرع من حصار خالد لها كانت تلقى بأنفسها في أحضان غيره من قادة مصالحة مخافة الفتح عنوة<sup>(٣)</sup> على يد ابن الوليد.

كانت هذه الوقائع الوالى يوما بعد يوم وتتوالى معها البرد<sup>(٤)</sup> إلى المدينة بأخبار النصر وغنائم القتال، فلا يفرغ الناس من حديث بريد حتى يتبعه ما رواء بنصر جديد. وسبقت ضربات خالد كل أمان الآملين في سرعة الظفر بدولة الآكاسرة. فقال أبو بكر وهو يبلغ الناس أنباء الظفر ليزفوا بشرها إلى الجزيرة العربية: "يا معشر قريش.. عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله<sup>(٥)</sup>.. أعقمت النساء أن يلدان مثل خالد!"

ثم سلمت الحيرة - بلد النعمان وموئل نابغة بنى ذبيان - فكان لتسليمها

(١) الذريعة: الوسيلة. (٢) صكت الركب: جعلتها تضطرب.

(٣) عنوة: "بفتح العين" قهرا. (٤) البرد: جمع بريد.

(٥) خراذيله: الخرائيل: قطع اللحم. والواحدة (خرذولة).

صلى بين أبناء العروبة لا يعد له صلى الفتح فى بلد من البلدان، لأنها كانت فى عالم الشعر والبلاغة حديثا على كل لسان.

إلا أن الخليفة الذى عرفناه رجلا حصيف الجراة، جرى الحصافة<sup>(١)</sup>، لم ينس اليقين مع الحيطه ولم ينس الحيطه مع اليقين<sup>(٢)</sup>. وأدركه الحذر فى هذه المرحلة من مراحل الحرب الفارسية فجنح إلى الأناة والترث، وأخذ بعنان خالد فلم يأذن له أن ينطلق وراء الحيرة حتى يوافيه زميله عياض ابن غنم ويأمن كلاهما من ورائهما غدرات الطريق. وحجة الخليفة فى ذلك أظهر من أن تخفى. فمن تجاوز الحيرة أحاط به الفرس من اليمين والروم فى الشام من اليسار. ثم إن السواد نفسه إقليم حديث العهد بالإسلام لم ترسخ فيه قدمه، ولا يؤمن تركه والتطوح بعده إلى حمى الدولة الفارسية فى غواصمها من وراء النهرين، وقد نعى إليه ولاشك أن فلول العرب المهزومين هجروا حوض العراق وأوغلوا فى الصحراء إلى دومة الجندل يتجمعون ويتربصون، وفى الشام أراجيف<sup>(٣)</sup> عن تعبئة القيصر لجيوشه لا تغمض عنها العيون قبل أن تستقر الطرق وتمهد مواطئ الفتوح، فإن لم يخرج عياض بن غنم من معاقل دومة الجندل بين العراق والشام مالكا زمامها وزمام ما حولها فكل خطر هنالك محتمل، ومل عجلة قد تجر إلى وبال.

ولكن الفرس الكريم الذى يجبس فى الحلبة يعانى من أمان الحيس ثقلة لا يعانها من تعجل العواقب ومكافحة الأخطار. فحز فى طبع خالد جذب العنان، وأقام فى انتظار زميله قرابة عام وهو يسميه سنة نساء. ولو كتب لرجل غيره أن يظفر فى هذه السنة "المستريحة" بمثل ما ظفر به لارتضاه لنفسه

(١) حصيف: الحصافة: استحكام العقل وجودة الرأى.

(٢) اليقين والحيطه: تحدث المؤلف فى كتابه (عبقريه الصديق) ص (١٤) فى إفاضة عما سماه

(اليقين والروية) وسماه هنا (اليقين والحيطه) فارجع إليه.

(٣) أراجيف: شائعات وأفاويل.

سجل عمر كامل، لأنه خاض ثمانى وقائع فيما يليه من البلاد لم يحسبها وقائع تحصى. وله فى كل وقعة منها نصر يعتز به قائد فخور. .

وقد عرضت لخالد فى هذه السنة وما قبلها عوارض شتى تدخل فى الحساب أو تأتى من هنا وثم<sup>(١)</sup> على غير حسابان. فتصرف فسها جميعا تصرف الرجل الذى خلق للتقلب فى أجواء الحرب كما خلق السمك للتقلب فى الماء، فلا تفجوه حالة من حالاتها بما يربكه أو يعيبه.

البدوى لا عهد له بسفينة الصحراء - وهى الجمل - لكن خالدا غنم السفن الفارسية بعد وقعة أليس، فاركب جيشه فيها ليكفيه ويكفى مطايه مشقة السير. فلم تنقله السفن إلا قليلا حتى جف الماء ولصقت بالقاع، لأن الفرس تسامعوا بمسيره فى النهر فأوصدوا قناطر الحيرة وحبسوا الماء عن مجراه، ولو بدوى فوجى بهذه الحيلة الحضرية وهذه اللعبة الهندسية لوقع فى "حيص بيص"<sup>(٢)</sup> وترك السفن فى قاعها ورجع إلى مطايه. . ولكنه أبى إلا أن يبلغ بالسفن إلى حيث شاء. فانبعث فى نفر من أصحابه كالبزة<sup>(٣)</sup> إلى القناطر وأطلقوا ماءها ولبثوا هناك فى حراستها وفى انتظار الفن التى ارتفعت براكييها كأنهم يشهدون غريبة من غرائب السحرة تعبت بالسفينة بين بر يابس ونهر غزير. .

وحفروا له فى الأنباء خندقا ثم احتموا وراء الخندق بحصن ينظرون إليه من أعلاه، كأنهم يهزأون به ويستعجزونه أن يعبر الخندق وأن يفلح فى علاج الحسن إذا وصل إليه. فلم يلبث أمام الخندق كثيرا ولا قليلا بل أمر لتوه بنحر الإبل العجاف<sup>(٤)</sup> وألقى بها فى الخندق فسدته، ودعا جيشه إلى العبور عليها.

(١) من هنا وثم: من هنا وهناك. (٢) فى حيص بيص: فى ضيق وشدة.

(٣) البزة: جمع (بازى) وقد سبق شرحه باسم (الباشق) ضرب من الصقور.

(٤) العجاف: الزيلة.

فأصبح من فى الحصن سجناء فى يديه، وتوسلوا إليه أن يرسلهم فى سبيلهم مجردين من السلاح والمتاع، وهم يحمدون الله على النجاة م يوم كيوم آليس. فأجابهم إلى ما طلبوه.

وعلم أن عقة بن عقة يحشد له فى "عين التمر" حشودا من تغلب وإباد وأصحاب المتنبة سجاح، ويوهم الفرس أنه ند للعرب لأنه أخبر<sup>(١)</sup> بهم من غيرهم. فوثب على معقله بالصحراء وهو كدأبه على تعئة كاملة. وبصر بعقة حين دنا الموقع فقال لصحبه: اكفونا ما معه فإنى حامل عليه بنفسى.. ثم احتضنه وحمله أسيرا<sup>(٢)</sup> ولا لا يتوقع أن يؤخذ من أساليب القتال العربى بهذا الأسلوب العجيب فى كل قتال. وقد كان خالد يعمد إليه<sup>(٣)</sup> كلما بدا له أن يوجز فى الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيهم، فيصيب ما أراد..

وأعطى الدعوة حقها كما أعطى القتال حقه فى كل معركة بما تقتضيه وتوجيه إله..

فكان إذا لقى العرب سألهم مذكيا فيهم نخوة العروية: "ويحكم.. أنتم عرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعد؟"

وكان يعين الحمية الدينية فى جيوشه بما يغرى النفوس من نعيم الدنيا

---

(١) أخبر: أكثر خبرة (اسم تفضيل).

(٢) احتضنه وحمله أسيرا: يقول المرحوم الشيخ محمد فخر الدين فى كتابه (تاريخ الفتح الإسلامى) معقبا على هذه العبارة: "هكذا يذكر المؤرخون، ومعناه فيما رأى أنهما تبارزا، فتكمن خالد من أن يقضى على مناوراته، ويخيب جميع ضرباته. فلما رأى الموت رأى العين نفسه، فأخذه خالد أسيرا، وبذلك انهزم جمده من غير قتال كما هى العادة"

(٣) يعمد من غير قتال كما هى العادة."

ومتاع الحياة، فأباح الأسلاب من سلبها بالغما ما بلغ قدرها، وربما قسم للمقاتل الواحد فى بعض الوقائع ألف دينار فلا يستكثرها عليه، ولا ينتزع منه غنيمة وقعت فى يديه. وقال لهم يوما بعد وقعة المذار: "ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب<sup>(١)</sup>؟" والله لم يلزمننا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش، لكان رأى أن تقارع<sup>(٢)</sup> على هذا الريف حتى نكو أولى به، ونولى الجوع والإفلاق من تولاه ممن قاتل عما أنتم عليه<sup>(٣)</sup>.

وأحكم الصلح كما أحكم الحرب، فكان عهده مع أهل الحيرة نموذجاً للعهود من قبيلة، وكان يصالح المستسلمين صلح الحيرة نموذجاً للعهود من قبيلة، وكان يصالح المستسلمين صلح من يعنى كل حرف يخطه بيمينه فلا يزيد ولا ينقص. قال فى عهد أهل الحيرة: "هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد.. نقباء<sup>(٤)</sup> أهل الحيرة، ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به. عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء على أيديهم<sup>(٥)</sup> فى الدنيا، رهبانهم وقسسهم إلا ما كان منهم على غير ذى يد حبيسا تاركا لها. وعلى المنعة، وإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم. وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة.. وكانت كتابة هذا العهد فى شهر ربيع الأول سنة اثنتى عشرة هجرية".

وعلى قدر سطوته الجائحة بمحاربه ومعانديه كانت رعيته ورفقه بأولئك المظالم الخالدين مع زراع تلك البلاد. فللمرة الأولى فى التاريخ من قبل بابل

(١) رفع التراب: إلى هذا الأسلوب. (٢) تقارع: تناضل.

(٣) أثاقل: تناقل وتراخى، يعنى الذين لم يجاهدوا مثل جهادهم.

(٤) نقباء: جمع نقيب، وهو شاهد القوم ومن يمثلهم.

(٥) فى تاريخ الطبرى (عن أيديهم)، والجزء (بكسر الجيم) جمع جزية، وهى الضريبة المالية التى كانت تؤخذ من أموال غير المسلمين المستظللين بالرأية الإسلامية جزاء حمايتهم. قال تعالى: «حتى يعطوا الجزية عن يد» أى بأنفسهم. وقوله «على غير ذى يد» أى غير قادر على إعطاء الجزية لأنه مترهب منقطع عن الدنيا.

وينبوى رأى فلاحو السواد حاكما يحفظ لهم غلاتهم وينصفهم من دهاقينهم - أو مستغليهم - ويستمتع شكاية ضعيفهم من قويهم، ويشرع ينهم شرعة المساواة والأمان. وبلغ من رفق الحكم الجديد برعاياه - مسلمين وغير مسلمين - أنه تكفل بالعبد إذا تحرر، وبالغنى إذا افتقر، وبالعائل<sup>(١)</sup> إذا نقطع عائلوه. وهذا مثل مما تكفل به الحكم الجديد فى كتاب خالد. قال: "إنى دعوتهم إلى الله وإلى رسوله فأبوا أن يجيبوا، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب، فقالوا: لا حادة لنا بحربك، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب فى إعطاء الجزية. إانى نظرت فى عهدتهم فوجدت زمانة<sup>(٢)</sup> ألف رجل، فأخرجتهم من العدة، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف، فصالحونى على ستين ألفا، وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والإنجيل: ألا يخافوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم، ولا يدلوه على عورات<sup>(٣)</sup> المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه، أشد ما أخذه على نبي من عهد أو ميثاق أو ذمة، وإن خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان، وإن هم حفظوا ذلك ووعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم<sup>(٤)</sup>، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق، وعليهم مثل ذلك ألا يخالفوا، وجعلت لهم أيما<sup>(٥)</sup> شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدون عليه، طرحت جزيته، وعيل<sup>(٦)</sup> من بيت مال المسلمين وعياله<sup>(٧)</sup>، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس

(١) العائل: الفقير الذى يعوله غيره، قال تعالى: «ووجدك عائنا فأغنى».

(٢) الزمانة: المرض المزمن.

(٣) عورات المسلمين: واضح الضعف التى يمكن أن يهاجمهم منها العدو.

(٤) المنع: الحماية. (٥) أيما شيخ: أى شيخ.

(٦) عيل: كفل وأعين. (٧) عياله: أهل بيته الذين يعولهم.

على المسلمين النفقة على عيالهم . وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم فى أسواق المسلمين فبيع بأغبى ما يقدر عليهم فى غير وكس<sup>(١)</sup> ولا تعجيل ، ودفع ثمنه إلى صاحبه . ولهم كل ما لبسوا من الزى إلا زى الحرب<sup>(٢)</sup> ، من غير أن يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم . وأيما رجل منهم وجد عليه شىء من زى الحرب سئل عن لبسه ذلك ، فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب<sup>(٣)</sup> . وشرطت عليهم جباية منهم ، فإن طلبوا عوناً من المسلمين أعينوا به ، ومثونة القواد من بيت مال المسلمين "

وقد عزلت هذه الرعاية من جانب ، وتلك السطوة من جانب آخر عزلاً فاصلاً بين الرعاة والرعية فى السواد وفى الديار الفارسية ، فنظرت الدهماء إلى الحرب كأنها حرب على الرعاة الفارسية ، فنظرت الدهماء إلى الحرب كأنها حرب على الرعاة وحدهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، فلا هى تغنيهم ولا هم يخشون من عواقبها العاجلة أو الآجلة ، بل هم بهذه العواقب ينعمون وإليها يتشوفون .

وكانت وقعة الفراض آخر أعمال خالد الكبار فى العراق وأوقاها دلالة على عجز الدولتين معاً ، دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية ، عدا ما فيها من الحوادث التى هى أصلح ما تكون للتفرقة بين مغبة العمل الواحد تأتية الأمة فى عهد إقبالها وتأتية الأدمة فى عهد إدارها . فهو ضربة موت من ناحية ، وهو من الناحية الأخرى كالضربة التى تتخذ عزيزة المضروب وتردة التوازن إليه .

الفراض فى أعلى العراض بين مسالح الفرس والروم ، يوشك هؤلاء وهؤلاء فيها أن يتناظروا متقابلين ، وقد هبط عليها خالد وثبة من وثباته فتألب

(١) وكس : نقص وغبن .

(٢) أى : من حقهم أن يلبسوا ما يريدون من الزى إلا زى الحرب .

(٣) أى : فإن جاء بعذر قيل منه ، وإن لم يكن له عذر عوقب . . الخ .

عليه هنالك عرب البادية وجيش الروم، وكان، ويشكا أن يتألب معهم جيش من الفرس لولا ما شغلوا به من أمر العرش ووراثته من المتنازعين عليه. وقال الروم لخالد كما قال الفرس بعد ذلك لأبي عبيد<sup>(١)</sup>: إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم. فلم يصنع خالد صنيع أبي عبيد بل قال لهم: اعبروا أتم إن شئتم. وتركهم حتى يعبروا ليحضرهم بينه وبين النهر فلا يهرب منهم هارب، وأرسل الفرسان والرامحين لي عزلوهم فطيحا، ويضيقوا عليهم مسالكهم، ثم يحصدوهم حصدا وهم أشبه بالمحكوم عليهم في ساعة التنفيذ منهم بالقاتلين.

على أنه لم يثب على الفراض وثبته تلك حتى كان قد "طهر" جوف الصحراء من جموع الأعراب التي تكونت<sup>(٢)</sup> إلى دومة الجندل وعوقت عندها زميله "عياضا" قرابة عاما. فلما ترامت أنباء فتوحه إلى عياض كتب إليه يستشيريه ويستنجده. فكان هو على عادته أول جواب بعد رجح الخطاب، وكتب إليه يقول:

لبث قليلا تأتتك الحلائب يحملن آساداً عليها القاشب<sup>(٣)</sup>

كتائب تتبعها كتائب

وكانت تفصله من دومه الجندل مسيرة أسبوعين، فقطعها هو في أقل من عشرة أيام، ووجد حصن الدومة مكتظا بمن فيه، وحوله زرافات ضاق بها الحصن فعسكرت بالعراء، فجعل القوم جميعا بينه وبين عياض، وتولى عياض حرب من قبله فهزمهم لما جاش في نفسه من نخوة المنافسة وما جاش

(١) هو ابن عبيد بن مسعود، ويشير إلى (وقعة الجبر) في سنة ١٣ هـ انظر هامش ص ١٧٠.

(٢) تكونت: فجمعت.

(٣) الحلائب: الجماعات تتجمع للنصرة. والقاشب: السيف اللامع القاطع. و(لبث) أى:

تمهل.

فى نفوسهم من الوحل والحيزة. وتدافع المنهزمون إلى الحصن يريدون بابه فسبقهم خالد إليه وانتزعه، وحال بين النازلين فى الحصن ومن حوله. ثم استنبنى كل من أصابه من رجال ونساء. ومن هؤلاء السبايا ابنة الجودى بين ريعة، استباها خالد لنفسه وقيل إنه اشتراها، ثم بنى بها<sup>(١)</sup> وأقام معها فى دومة الجندل أيام مقامه فيها.

وكان أهل الدومة قد عاهدوا المسلمين غير مرة ونكثوا بعهودهم، فأمن القتلى وجعلهم نكالا<sup>(٢)</sup> لغيرهم. ثم قفل إلى العراق وهو مطمئن إلى غزوة الفراض بأعلى الفرات. فغزاها وفرغ منها كما تقدم. وبقيت له فى العراق عزمة خالدية أخرى ولكنها من نوع غير هذا النوع، فلم يلبث أن قضاها. . . بقى على موسم الحج أسبوعان، وهو أول حج حان بعد تلك الغزوات المتلاحقات التى أمده الله فيها بنصره وعونه.

أيفوته قضاء الشكر فى هذا الموسم وأداء الفريضة فى موعدها؟ ولم؟ الخوف من الأعداء. ألعائق من بعد الشقة ووعرة الطريق؟ ألعذر من الأعداء التى يعتصم بها القاعدون عن الحج برخصة من الفقهاء؟ كل أولئك عوائق لا يستهان بها ولكنها خلقت ليذلها لا لينكص عنها. . . ففى خطفة الريح العاصفة خرج من أعلى العراق إلى أقصى الحجاز وادى الفريضة وعاد إلى معسكره دون أن يعلم أحد من الأعداء ولا من المسلمين إلا أقرب خاصة المقربين، بل دون أن يعلم الخليفة نفسه وقد كان على الحج فى ذلك العام.

ويروق بعض المؤرخين أن يحسب هذه العزمة الخالدية من مغامراته التى تتم على فرط الثقة بنفسه ولا تتم على شىء غير ذلك، ولكنها فى الواقع دلت على نفسه بغيره كما دلت على ثقته بنفسه. فقد علم أن معه بالجيش من

---

(١) بنى بها: تزوجها.

(٢) نكالا لغيرهم: عظة وعبرة.

فيه غنى وكفاية إذا جد في غييته طارق داهم أو خطب حازب<sup>(١)</sup>. وكفى بالمشئى رائدة المقدام، وبالقعقاع صاحبه القديم وموضع ثقته الحميم..

علم الخليفة بمغامرته هذه فجاءه منه ملام، وإعجاب، وتكليف، ووصاة: أمره بحرب الدولة الرومانية بعد هذا الفوز الذى أصابه فى حروب الدولة الفارسية، وأن يسارع إلى مرضاة الله وقتال أعداء الله، ويكون كمن يجاهد فى الله حق جهاد وقال له: "سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا"<sup>(٢)</sup>. وإياك أن تعود إلى مثل ما فعلت، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك<sup>(٣)</sup>، ولن ينزع الشجا من الناس نزعك<sup>(٤)</sup> فليهنك<sup>(٥)</sup> أبا سليمان النية والحظوة<sup>(٦)</sup>. فأتمم يتم الله لك. ولا يدخلنك عجب فنخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل<sup>(٧)</sup> فإن الله له المن ولى الجزاء"<sup>(٨)</sup>.

وكتب إلى عبيدة فى الشام يخبره بمقدم خالد إليه، ويقول له فى كلام

(١) الطارق الداهم: الأمر المفاجئ، والمخاطب الحازب: الشديد.

(٢) شجوا وأشجوا: يقال (شجى بالهم) بكسر الجيم وفتح الياء، إذا لم يجد من الهم مخرجا، وكذلك إذا اهتم وحزن. والمراد أن جيش المسلمين باليرموك قلق مهموم، وهذا يسبب الهم والقلق. ويجوز: أنهم شجوا بأنفسهم، وأشجوا غيرهم (أى جيوش الروم).

(٣) لم يشج الجموع: الرواية فى الطبرى "لم يشج الجموع من الناس بعون من يقهر الجموع أحد مثل ما تقهرها أنت بعون الله.

(٤) لن ينزع الشجا.. الخ: الشجا: ما يعترض فى الحلق من عظمة أو نحوها، وذلك كناية عن الهم والقلق، والمراد أنه ليس هناك أحد يقر على نزع الشجا مثل قدرتك على نزعه.

(٥) فليهنك: هنيئا لك.

(٦) النية والحظوة: فى بعض الروايات (النعمة)، والحظوة: المكانة.

(٧) تدل: (بضم التاء وكسر الدال): من الادلال، وهو التفاخر بالأعمال والمباهاة.

(٨) فى الطبرى (فإن الله له المن وهو ولى الجزاء).

صريح: "سلام الله عليك. أما بعد. . فقد وليت خالدا قتال العدو فى الشام، فلا تخالفه واسمع له وأطع. فإنى لم أبعثه عليك ألا تكون عندى خيرا منه، ولكنتى ظننت أن له فطنه فى الحرب ليست لك. أراد الله بنا وبك خيرا والسلام".

فأرسل خالد إلى أبى عبيدة رسولا يبلغه قبل مقدمه بكتاب يقول فيه: "أتانى كتاب خليفة الله يأمرنى بالسير إلى الشام، وبالقيام على جندها والتولى لأمرها. والله ما طلبت ذاك قط ولا أردته إذ وليته. فأنت على حالك الذى كنت عليه، لا نعصيك ولا نخالفك، ولا نقطع دونك أمرا. فأنت سيد المسلمين لا تنكر فضلك، ولا نستغنى عن رأيك".

وأول خاطر سبق إلى ظن خالد حين حوله الخليفة من حرب فارس إلى حرب الروم أنه عمل من أعمال "الأعيسر" كما يسميه، ويعنى به عمر بن الخطاب، وإنه فيه شركاه من أعلام الصحابة بفتح فارس، فأرسله إلى ميدان له فيه شركاء من أعلام الصحابة ذوى الخطر والسابقة الملحوظة بين المسلمين.

وهو ظن بعيد يخطر على بال خالد لأنه يتوقع شيئا من صوب عمر<sup>(١)</sup>، ولكنه لا يخطر على بال غيره. إذ لا ينفس عمر على خالد أن ينفرد بغلبة الفرس ثم يرسله ليغلب الروم بعد أن تأخر الفتح على أيدي كبار القواد من أجلا الصحابة. فهذا مزيد من ياباه عليه. وإنما اختار الخليفة خالدا لأن العراق كانت فى هداه من جانب الفرس بعد هزائمهم الكثيرة، وكان فى جيش المسلمين وقواده بالعرق كفاية للمثابرة على الفتح بعد أن تم التدويخ والتمهيد، ولأن خالدا كان أقرب مدد إلى الشام، ولم يكن بالحجاز بقية من قوة فاضلة<sup>(٢)</sup> تضاف إلى قواتهم فى حرب الرومان. فاختره الخليفة وهو يقول: "لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد".

---

(١) من صوب عمر: من ناحيته. (٢) قوة فاضلة: زائدة.

وليس من عادة خالد أن يضيع وقتا قلا أو كثر إذا نيط به أمر من الأمور. فلما تدب للجهد بالشام نظر فإذا بينه وبين الشام يومئذ من خمسمائة إلى ستمائة ميل على حسب الطرق التي يسلكها، وهي أربع يختار منها أصلحها لإنجاز العمل الذي وكل إليه.

من هذه الطرق الأربع ما هو سهل موفور الماء والكلا ولكنه من أجل هذا موفور الحراس والسكان، فهم يعوقونه بالمقاومة عن الإسراع المطلوب دون أن تكون للغلبة عليهم فائدة تذكر فى القتال الحاسم بين المسلمين والرومان. . ومنها ما هو قليل الحراس والسكان وفيه الماء والكلا، ولكنه بعيد يطول السير فيه. .

ومنها ما هو وعز قليل الماء والكلا مخيف غير مطروق، أو كما قال الدليل الذى سألته خالد: "إنك لن تطيق ذلك بالخيال والأثقال. والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه، وما يسلكها والأثقال. والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه، وما يسلكها إلا مغرور<sup>(١)</sup>. إنها لخمس ليال جياذ<sup>(٢)</sup> لا يصاب فيها ماء مع مضلتها. ."<sup>(٣)</sup>.

وأيسر شئ على القارئ الذى عرف خالد أن يعلم أى هذه الطرق يسلكه خالد. . فما هو بسالك حيث سألك إلا الطريق الذى هو أحوج إلى قدرة القائد وأدل على العزيمة والمضاء، وأبعدها جميعا أن يتوقع العدو هجوما منه، فأجمع عزمه على طريق من الطرق الأربع هو أصعبها وأقصرها، وهو الذى خوفه الأدلاء منه، وقال لدليله الأكبر رافع بن عميرة الطائى - ولا أحد

---

(١) مغرور: فى الطبرى (إلا مغرورا) أى معرضا للخطر والهلاك. وهى منصوبة على الحال، أى (وما يسلكها الراكب إلا وهو عرضة للهلاك)، مشتقة من "الغرر" بفتحتين، أى الخطر.

(٢) جياذ: يريد: (شديدة الوطأة).

(٣) مع مضلتها: يريد أنها - بالإضافة إلى خلوها من الماء - فإن السائر يضل فيها.

يعنى غناه فى السير بتلك المفازة المهلكة وإن كان يومئذ من حسر النظر<sup>(١)</sup> كالمكفوف الضرير .

" يحك إنه والله إن لى بد من ذلك<sup>(٢)</sup> " . . إن القوة<sup>(٣)</sup> تأتى على قدر النية ، وإن المسلم لا ينبغى له أن يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله .  
ويروى الرواة أن الدليل قال لهم بعد ذلك : أكثروا من الماء . من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل ، فإنه المهالك إلا ما دفع الله . .  
ثم قال لخالد : " أبغنى<sup>(٤)</sup> عشرين جزورا<sup>(٥)</sup> عظاما سبانا مسان<sup>(٦)</sup> فأنا هيهن فظمأهن حتى إذا أجهدن عطشا أوردهن<sup>(٧)</sup> فشرين ، حتى إذا تملأن عند إليهن فقطع مشافرهن<sup>(٨)</sup> ثم كعمهن<sup>(٩)</sup> لثلا يجترون<sup>(١٠)</sup> . .

وأشار على خالد أن يقتط<sup>(١١)</sup> أربعا من هذه الجزور كلما نزل منزلا ليستقى الخليل ، وأن يشرب الجند مما حملوا من الماء . ففعلوا ما أشار به حتى كان آخر يوم فى المفازة . . فقال له خالد : ويحك يا رافع . ما عندك؟ فأرسل رافع جماعة ينظرون شجيرة من عوسج<sup>(١٢)</sup> فى موضع كان يعهدا فيه ،

(١) حسر النظر: البصر الحسير: الكلليل الضعيف.

(٢) أن لى بد من ذلك: (إن نافية، أى: لا بد من ذلك.

(٣) فى رواية الطبرى (أن المعونة تأتى على قدر النية). (٤) أبغنى: أطلب لى.

(٥) الجزور: الناقة التى تنحر، ومنها اشتق (الجزار).

(٦) مسان: (بتشديد النون) الإبل الكبار، جمع مسن).

(٧) أوردهن: جعلهن يردن الماء للشرب.

(٨) المشافره: جمع مشفر (بكسر الميم): شفلة البعير.

(٩) كعمهن: شد أفواهما بالكعامة، وهى كمامة توضع على فم البعير لثلا يعض أو يأكل.

(١٠) يجترون: الاجترار: إرجاع ما فى الجوف من طعام.

(١١) يقتط: يقال (اقتط الشيء) إذا نحره فاعتصر ماءه وصفاه.

(١٢) ضرب من الشجر كثير الشوك.

ويعهد فيه الماء على مقربة منها. فلم يجدوها. فصاح الرجل بالويل، واسترجع<sup>(١)</sup> قائلاً: هلكتم والله إذن وهلكت، لا أبالكم. انظروا انظروا، فلما نظروا وأمعنوا النظر رأوا جذار قد بقي منها وقطع سائرهما. فكبروا فرحا وشكرا، وحفروا في أصلها، فنبع لهم الماء، فشربوا ونجو من هذا الخطر الأليم الذى دونه كل خطر من لقاء الأعداء وفى ذلك يقول أبو أحيحة القرشى:

لله عينا رافع أتى أهتدى      فى مهمة مشتبه إلى سوى<sup>(٢)</sup>  
والعين منه قد تغشأها      معصوبة كأنها ملأى ثرى<sup>(٣)</sup>  
فهو يرى بقلبه ما لا يرى      من الصوى تترى له بعد الصوى<sup>(٤)</sup>  
فوز من قراقر إلى سوى      والسير زعزاع يومين فيما فيه ونى<sup>(٥)</sup>  
خمس إذا ماسارها الجيش بكى      فى اليوم يومين رواحًا وسرى<sup>(٦)</sup>  
ما سارها من قبله أنس يرى      هذا لعمرى رافع هو الهدى

وساء صحت رواية الجزور المظماة أو كان فيها شيء من توسع الخيال فالطريق الذى سلكه خالد معروف، والقدرة عليه هى موضع العبرة والتأمل فى هذا المقام. أما نحن فالذى نراه خالدا لم يكن لينتظر حتى تظماً الإبل

(١) استرجع: قال (أنا لله وإنا إليه راجعون).

(٢) قراقر وسوى: قراقر: ماء لبنى كلب، وسوى: ماء لبهاء، وبينهما مسيرة خمس ليال. والمهمة المشتبه: المغادرة التى ضل فيها السائر إذ تشبه مسالكها وتلتبس عليه.

(٣) سبق القول أن الدليل (رافع بن عميرة) كان حسير النظر كالمكفوف الضرير، ويقال إنه كان يشكو ومدا فى عينيه، ولذلك يقول الشاعر أن عينه معصوبة كأنها مملوءة بالتراب.

(٤) الصوى: جمع صوة (بضم الصاد وتشديد الواو المفتوحة) وهى ما يتعصب من الحجارة ليستدل به على الطريق. و (تنزى) أى متتابعة.

(٥) فوز: سار فى المفازة، والزعزاع: الشديد، ونى: ضعف وتراخى.

(٦) الخمس: من القلوات: ما بعد ملوها حتى يكون يوم الإبل فى اليوم الخامس.

وهي لا تجتهد من الظماً إلا في أيام، وأن الإبل لا تخزن الماء في جوفها وإن لم تخبره دون أن ينصرف منها، وأن عشرين جزورا تمتلئ كروشها بالماء لا تسقى الخيل في الجيش كله وعدته عشرة آلاف. فلا بد من تدبير آخر مع هذا التدبير تجتمع فيه السرعة إلى التخفف إلى الإقدام . .

والأمر الذي لاشك فيه بعد هذا كله أن خالدًا سار بجيشه - وعدته عشرة آلاف - من عين التمر إلى قراقر، ثم من قراقر إلى سوى، وبينهما تلك المفازة المهلكة، ثم إلى تدمر، فالغوطة فبصرى<sup>(١)</sup>، فقطع هذه المسافة في ثمانية عشر يومًا، لأنه كما قال الشاعر كان يطوى مسافة اليومين في يوم واحد . .

" في اليوم يومين رواحا وسرى . . "

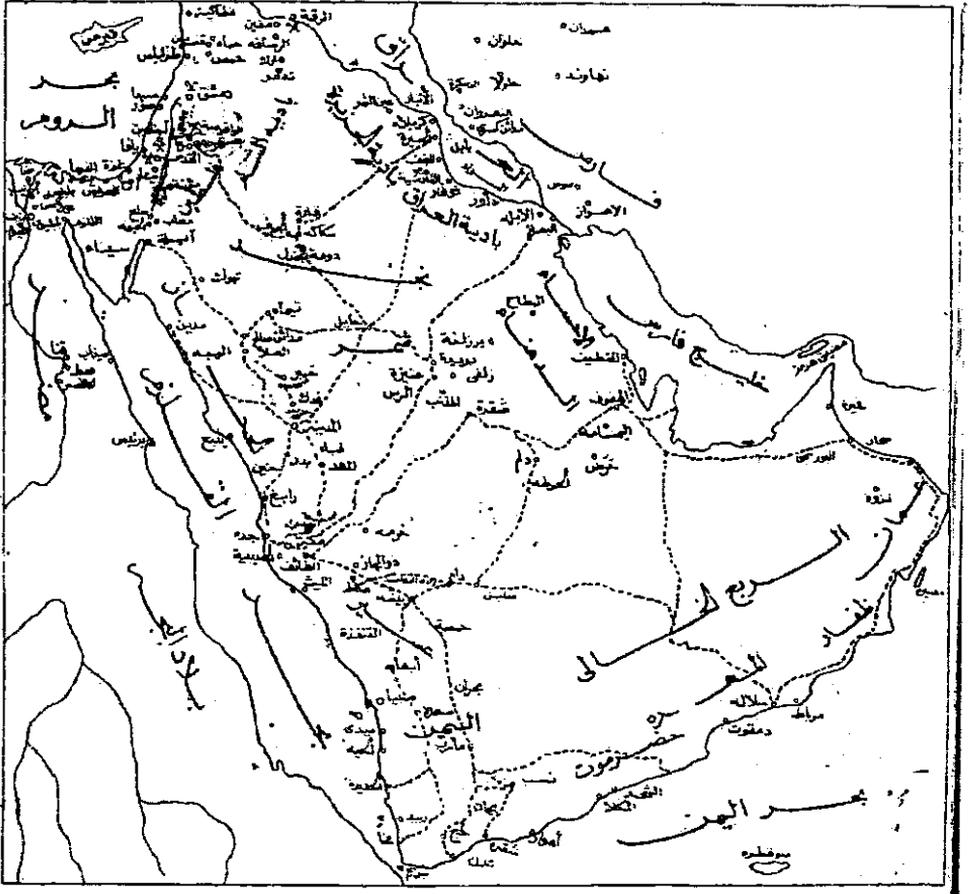
خرج من الحيرة في أوائل صفر من سنة ثلاث وعشر للهجرة، وطوى تلك المسافة في تلك الأيام بعد أن قمع كل مقاومة لقيها من المسالحي<sup>(٢)</sup> والحصون وراء المفازة الخاوية من كل ديار . .

واتفق خروجه من الحيرة وجيوش المسلمين في الشام تشرع في خطة جديدة للتراجع إلى الجنوب، وملاقاة الجيوش الرومانية الجرارة، في جمع واحد ينهض لها<sup>(٣)</sup> ويحول دون الإحداق بكل جيش منها على انفراد.

وكان الخليفة قد سيرها - بعيد منتصف السنة الثانية عشرة للهجرة - مع أربعة من كبار القواد في طرق مختلفة إلى وجهات متعددة فسير يزيد بن أبي سفيان على رأس ستة آلاف أو سبعة آلاف إلى دمشق، وسير شرحبيل بن حسنة على مثل هذا العدد إلى الأردن، وسير عمرو بن العاص على رأس جيش يزيد على ذلك قليلاً إلى فلسطين، وسير أبا عبيدة بن الجراح على

(١) انظر الخريطة. (٢) المسالحي: سبق تفسيرها. ص ١٤٠.

(٣) ينهض لها: يملك القدرة على مواجهتها والتصدي لها.



أشهر المدن العربية والمواقع الحربية  
التي خاضها خالد بن الوليد في صدر الإسلام

رأس خمسة آلاف أو ستة آلاف إلى الجابية، وأمدهم بعكرمة بن أبي جهل في جيش صغير ليحمي ظهور من يحتاج منهم إلى الحماية ويسرع بالنجدة إلى من يطلب منهم المعونة.

ولا نعلم على التحقيق حكمة التفرقة بين هذه الجيوش في طرائقها ووجهاتها، ولكنها على ما يظهر مسألة الماء والكلاء من جهة، ثم رغبة الخليفة في تشتيت جموع الروم وتوزيع أغراضها، ولا يخلو الأمر من الحيلة لمنع الالتفاف بالجيش الواحد إذا أوغل في البلاد كما حدث قبيل ذلك لجيش خالد بن سعيد، فإن الجيوش الأربعة يكون كل منها مددا لصاحبه، ومانعا للالتفاف به، أو منقذا له من الالتفاف إذا وقع فجأة. وهذا مع علم الخليفة يومئذ بتفوق الحاميات الرومانية في مواقع البلاد الداخلية، إذ كان الرومان على ما يظهر قد اطمأنوا من جانب الفرس بعد انتصارهم عليهم، واطمأنوا إلى جانب العرب بعد رجوع حملاتهم الثلاث على النحو المعروف، وهي حملات مؤتة وتبوك وجيش أسامة، وزادهم اطمئنان أنهم غلبوا الحملة الرابعة وهي حملة خالد بن سعيد، وأنهم عرفوا اشتغال العرب بحرب الفرس فوقع في روعهم أن العرب أضعف من أن يشغلوا أنفسهم بحرب دولتين عظيمتين في وقت واحد. فمن هنا خلت ربوع الشام من جيش كبير للرومان، وعلم الخليفة ذلك فاعتقد أن تفرقة الجيوش في زحفها إلى الشام أقرب إلى توزيع العمل والإسراع فيه، فإن تغير الموقف وعمد الرومان إلى حشد الحشود الكبيرة فقد أوصى القادة بالتشاور والتعاون في مقابلة هذه الطوارئ، كما أوصاهم بالرجوع إليه.

وقد نجحت هذه الجيوش في وجهاتها، وتقدم بعضها إلى دمشق وبعضها إلى حمص، وأوغل بعضها إلى فلسطين.

ثم نعى إليهم أن القيصر يستعد لهم بجيش كبير في أنطاكية، وجيش آخر في جوار بيت المقدس، وبلغت عدة الجيش الأول على تقدير بعض

المؤرخين مائتين وأربعين ألفا، وعدة الجيش الثاني سبعين ألفا أو نحو ذلك، ولو نزلنا بعدة الجيشين إلى النصف حسبنا<sup>(١)</sup> للمبالغة وجهل الحقيقة لما كان نصف هذا العدد بالشئ القليل، لأنه يربى على ثلاثة أضعاف الجيش العربي كله بعد قدوم جيش خالد إليه، ولم يرتفع به أحد إلى ما فوق الخمسين ألفا على أعظم تقدير . .

فتشاور القواد قيما يصنعون، فاستقر لهم رأيهم على التراجع إلى الجنوب ليتجمعوا قبل أن يتلاقى الجيشان الرومانيان ويشتبكا بهم متباعدون متفرقون كل منهم في بضعة آلاف .

ولعلمهم يصحبون في تراجعهم أقرب إلى الأمن إذا حاربوا وظهورهم إلى الصحراء، وقد علموا بالأمثلة الكثيرة أن الجيوش الرومانية تحجم عند حدودها ولا تجسر على خوضها في أعقاب جيش كبير أو صغير .

والمؤرخون مختلفون فيمن هو صاحب المشورة الأولى بالتراجع إلى الجنوب، فمنهم من يقول إنه أبو سفيان بن حرب، ومنهم من يقول إنه عمرو ابن العاص . وهذا القول الأخير أدنى إلى الواقع لأن عمروا كان يتراجع في الجنوب قبل أن تصل الجيوش الأخرى إليه، وكان من الموافق لخطه أن توافيه الأمداد في ميدانه بفلسطين .

وأيًا كان صاحب الرأي الأول في هذا فقد تم التراجع بإقرار الخليفة، وكان شعوره بحرج المسلمين في أماكنهم هو الباعث له أن يستدعى خالدا من العراق إلى الشام . فكتب لقواده بالشام يقول: "اجتمعوا فتكونوا عسكريا واحدا، وألقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله، والله ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما يؤت

---

(١) حسبنا: الحسبان (بضم الحاء) العدد، والتقدير الدقيق، قال تعالى (الشمس والقمر بحسبان).

العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا م تلقاء الذنوب. فاحترسوا من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليصل كل رجل منكم بأصحابه".

ومن المتعذر جدا تمحيص التواريخ فى ترتيب الوقائع بعد وصول خالد إلى الشام. ولكن الأرجح فيما نرى أن المعركة الأولى بدأت مع الجيش الأصغر فى "أجنادين" بالجنوب. لأن البدء بأصغر القوتين وإخلاء الجنوب قبل الانتقال إلى الشمال أولى وأوفق من ترك هذا الجيش الأصغر وراء ظهور المسلمين ومواجهتهم الجيش الأكبر بين عدوين، ولأن معركة "أجنادين" لم يشترك فيها معظم القواد المسلمين، مما يرجح أنها وقعت قبل اجتماع هؤلاء القواد فى صعيد واحد. ولو أنها وقعت بعد المعركة الكبرى فى اليرموك لما كان مفهوما أن يترك أولئك القواد جيشا كجيش الرومان فى فلسطين دون أن يتعقبوه جميعا، مع فراغهم من أسر الجيش الكبير فى اليرموك.

وعلى أية حال هزم الروم فى "أجنادين"، وكانت الواقعة الحاسمة بينهم وبين المسلمين فى اليرموك، على اختلاف كثير فى التواريخ، واتفاق فى تصوير خطة القتال.

ويحسن بنا قبل أن نستطرد إلى الكلام على المعركة أن نجمل حالة الجيشين المتقاتلين عند اللقاء.

فالجيش الرومانى كان أوفر عددا وأكمل عده بغير خلاف، ولكنه خليط من عناصر عدة، منها الروم والأرمن والعرب وأجناس أخرى، وقد يظن لأول وهلة أنه امتاز بالنظام والخطط الفنية على أعدائه، ولكنه فى الحقيقة كان أبعد الجيشين عن النظام الصحيح إذا أردنا بالنظام وحدة الحركة والتوجيه. لأن المتطوعين فيه من أبناء القبائل كانوا يحاربون على ديدهم<sup>(١)</sup>، والجنود

(١) ديدهم: عادتهم ودأبهم.

النظاميين يحاربون على ديدن آخر، وتعوقهم العدد الكثيرة والشكك السابغة<sup>(١)</sup> التي حسبت من مزاياهم، فهي إلى النقص هنا أقرب منها إلى المزية.

وقد أثرت فيهم حمية الدين، ولكنهم ثارا لهما متشككين متفرقين، وجعلتم حماستهم الدينية يترقبون من الله عقابا ينزله بهم على خطاياهم وخطايا قيصرهم ورؤساءهم المتهمين عندهم بالزيف ومطاوعة الشيطان. فحمية الدين تثيرهم من ناحية وتضيرهم من ناحية، وليست هي من قوة اليقين المكين . .

أما جيش العرب فقد كان من أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وترجع إلى قيادة واحدة، وفي صدورهم من حمية القتال كل ما يحفز القلب الإنساني إلى الثبات والاستبسال. غيرة على الدين وغيره على العرض. وناهيك بالغيرتين، ويقين من نعيم الآخرة ونعيم في الدنيا إذا كتب له الفلاح، وكفى بإغراء النعيمين. كان في جيش المسلمين أصون كرائم البيوتات القرشية: بنت أبي بكر، وأم معاوية، وزوج عكرمة بن أبي جهل، وعقائل<sup>(٢)</sup> أناس من الجند والقادة. وقد أمرهن أبو عبيدة قبل المعركة "أن يأخذن بأيديهن أعمدة البيوت والخيام ويجعلن الحجارة بين أيديهن، فإن كان الأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه، وإن رأين أحدا من المسلمين منهزما ضربن وجهه بأعمدتهن وأرجعنه بحجارتهن، ورفعن إليه أولادهن وقلن له: "قاتل عن أهلك وعن الإسلام". ولم يقنع خالد بهذا بل قال لهن: يا نساء المسلمين: أيما رجل أقبل عليكم منهزما فاقتلته.

ومن أجل هذا لا نعجب أن يكون هرقل قد وزن القوى وفكر حقا في عرض الصلح على المسلمين، وقال لبطانته وذوى شوره: "لأن تعطوهم

(١) الشكك السابغة: ملابس الحرب الفضفاضة (سبق تفسيرها).

(٢) العقائل: جمع عقلية، وهي السيدة المحصنة، والزوجة الكريمة.

نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقربوا من جبال الروم خير لكم من أن يبلغوكم على الشام كلها ويشاركوكم فى جبال الروم" ، ولكنهم استضعفوه وكبر عليهم أن يجيبوه .

أما المسلمون فالصلح الذى فكروا فيه قبل القتال هو الصلح على شرطهم المعلوم . الإسلام أو الجزية ، فإن لم يقبل شرط من الشرطين فالحكم للسيف .

وقد أفادهم عرض هذه الشرط قوة على قوة ، وزادهم أن نفوس أعدائهم مهابة على مهابة . فلما ذهب وفدهم يعرض هذه الشروط قبل القتال على القائد تيودور - أخى القيصر - حسب هذا أنه لهم بالبذخ والثراء ، ويكسر أنفسهم بما يريهم من حلل الأبهة والنعيم . فأقام لهم سرداقا من فاخر الحرير يستقبلهم فيه . . فوقفوا عند بابه ولم يدخلوه قائلين : " إن ديننا يمنعنا أن تقترش الحرير والديباج " .

فها لوه بزدهم أكثر مما هالهم بترفيه . . وأعسر شىء على جنوده بعد ذلك أن يؤمنوا حق الإيمان أنهم - وهم الغارقون فى المناعم واللذات - يقاتلون فى سبيل الله قوما هذا مبلغ زهدهم فى المناعم واللذات ، وهذا مبلغ استعلائهم على الدنيا وما تبسطه لهم من غواية .

ولم يخف على أحد من قادة الرومان والعرب خطر المعركة الكبيرة التى هم مقبلون عليها : هى معركة فاصلة فى مصير الشام ما فى ذلك ريب . وقد تكون المعركة الفاصلة أيضا فى مصير الدولة الرومانية ومصير الأمة العربية . فإن هزيمة الدولة الرومانية فيها تنزع من يدها الأماكن المقدسة ، ويعقبها ضياع مصر وثورة المتربصين بالقيصر وأهل بيته فى بلاده الآسيوية والأوربية ، وإن هزيمة الجيش العربى معناها هزيمة الجيش الأكبر الذى لا يتسع الوقت ولا تتسع الطاقة لتجريد جيش غيره على أثر الهزيمة ، وقد تغرى القيصر الرومانى بإرسال قبائل الشام فى أعقاب المسلمين إلى الحجاز والجزيرة العربية ، ولا يبعد

أن تثير أبناء الجزيرة العربية أنفسهم على خليفة الإسلام ممن لا تزال لهم  
ترات<sup>(١)</sup> تعلى فى حنايا الصدور ..

فاستعد الفريقان غاية ما فى الوسع من استعداد.

وارتضى كلاهما موقع اليرموك للوقعة الفاصلة بينهما، لأنه يوافق  
طلبة<sup>(٢)</sup> القيصر من مكان " واسع العطن، واسع المطرد، وضيق المهرب<sup>(٣)</sup> "   
ولا يكرهه المسلمون لأنهم رأوا منزل الروم فيه محصور بين النهر والبحيرة  
والوادي وجيش المسلمين. أو كما قال عمرو بن العاص حين رآهم: " أيها  
النأي، أبشروا .. حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير " .. تحاجز  
الجيشان أشهرا لا يشتبكان إلى جمادى الآخرة أو رجب على قول بعض  
الرواة.

وكلاهما ينظر كيف يبدأ الآخر هجومه ليرتب له لقاءه، وكلاهما قد عبا  
طاقته من سلاح الأيدي، ولم يزل يعبئ طاقته من سلاح النفوس: سلاح  
العقيدة والقداء.

واستعان الرومان بالقسيسين يلهبون الحمية ويضرمون الحفيظة، ويهونون  
على أتباعهم بذل الأرواح فى سليل الملة والدولة والمجد القديم.  
وأقبل المسلمون على القرآن يرتلون، على العظاات يذمرون<sup>(٤)</sup> بها  
القلوب، وجعل وراءهم حرسا من الأعراض<sup>(٥)</sup> هو أقوى الحراس بعد  
الإيمان ..

---

(١) ترات: جمع ترة وهى الثأر. (٢) الطلبة: (بكسر اللام) الشئ المطلوب.

(٣) العطن: مبرك الإبل عند الماء، والمراد (واسع الإرجاء)، والمطرد: المذهب، أو مكان  
الطراد، وهو أن يحمل الفرسان بعضهم على بعض فى الحرب.

(٤) يذمرون: يستيرون.

(٥) الأعراض: يشير إلى النساء اللائى وقفن خلف الصفوف، فالجيش يحمى عرضه إذ يذوذ  
عن النساء.

ثم كثرت الحركة أياما في جيش الروم فعلهم القادة المسلمون أنهم مقربون من الهجوم، ولم يشأ خالد أن تبتدى المعركة بقيادة متفرقة لا تنحد في نظام واحد. فصرف همه الأول إلى تنظيم الفرق جميعا في تعبئة واحدة يقودها رجل واحد، ووجد من زملائه قلبا مصغية فأجابوه إلى ما دعاهم إليه.

قال لهم ابتداء القتال: "هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى: أخلصوا جهادكم<sup>(١)</sup> وأرضوا الله بعملكم، فإن هذا اليوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم متساندون<sup>(٢)</sup>، فإن ذلك لا يجمل ولا ينبغي. . وإن من وراءكم<sup>(٣)</sup> لو يعلم حال بينكم وبين هذا. فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنه الرأي".

ثم قال وقد سأله رأيه: "إن الذي أتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيه<sup>(٤)</sup>، وأنفع للمشركين من إمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم؟ فالله الله. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم<sup>(٥)</sup> عند الله ولا عند خليفة رسول الله. . هلموا. . فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده. إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم تفلح بعدها. فهلموا فلتتعاور<sup>(٦)</sup> الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد، حتى يأمر كلكم، ودعوني إليكم<sup>(٧)</sup> اليوم".

(١) اخلصوا جهادكم: اجعلوه خالصا لله.

(٢) متساندون: يقال (خرج القوم متساندين) أى على رايات شتى، إذا خرج كل بنى أب على راية، ولم يجتمعوا على راية واحدة تحت أمير واحد.

(٣) من وراءكم: يعنى الخليفة وولاية الأمر فى المدينة.

(٤) مما قد غشيه: من أحال التى ألت لهم فى موقفهم الحرج.

(٥) ينقصكم: بقلل من شأنكم

(٦) فلتتعاور: تعاوروا الشىء: تداولوه، فيما بينهم.

(٧) إليكم: أتولى قيادتكم.

فأسندوا إليه قيادتهم يومها، وكان توحيد القيادة أول خطوة في طريق النصر الحاسم بمعركة اليرموك.. ثم أسرع إلى تعبئة قواده وجنوده على الوضع الذى رآه ملائماً للتعبئة الرومانية، وهو الوضع الملائم للحرب "فى العمق" كما يقول العسكريون فى هذه الأيام.

فأقام عمرو بن العاص على الجناح الأيمن، ويزيد بن أبى سفيان على الجناح الأيسر، وأبا عبيدة بن الجراح على القلب واتخذ مكانه فى كبه الجمع، ولجأ إلى طريقه التى اختارها لحرب بنى حنيفة وهى طريقة الكراديس، لأنها أصح الطرق للنفاذ فى الصفوف، وأدعاها إلى النافس بين المقاتلين وتمييزهم بالتبعة أو بالثناء.

وكانت كل فرقة من الميمنة أو القلب أو اليسرة تتألف من كراديس عدة، على كل منها قائد معروف، ومنهم صاحبه القديم القعقاع، وزميله فى حرب اليمامة عكرمة بن أبى جهل، وزميله فى دومة الجندل عياض بن غنم، وابنه عبد الرحمن وهو يومئذ دون العشرين. وجملة الكراديس جميعا ثمانية وثلاثون معظمها فى القلب، وعدته ثمانية عشر كردوسا، رئيسهم أبو عبيدة، وفيهم عكرمة والقعقاع.

وكان موضع الميمنة بحيث يستطيع الالتفات بالجيش الرومانى إذا أمعن فى الهجوم، والإطباق عليه من القلب إذا ارتد إلى الوراء. وفرغ من التعبئة فعمد إلى "القوة الأدبية" يوليها حقها من عنايته الكبرى. وأخرج المقداد يقرأ على الجيش سورة "الأنفال"، ودعا كل رئيس أن يعظ جنده ويصرهم بمرامه فى حركاته. وجماع<sup>(١)</sup> هذه العظات خطة عمرو بن العاص حيث قال: "غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، واشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم

(١) جماع الشيء: بكسر الجيم، أو بضمها وتشديد الميم: مجتمع أصله، تقول (الخرم جماع الالم).

فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة<sup>(١)</sup> فثبوا في وجوههم وثبة الأسد، فو الذي يرضى الصدق ويثيب عليه، ويمقت الكذب، ويجزى بالإحسان إحسانا، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا، وقصرا قصرا، فلا تهولتكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الحملة تطائرا تطائرا الجحول" (٢).

وخطب مثله معاذ بن جبل وأبو سفيان، وبرز القعقاع وعكرمة قائد المجنبة<sup>(٣)</sup> في القلب يرتجزان<sup>(٤)</sup>، وأخيرا يوم القتال في يوم ريح سموم سافياء في حمارة القيظ<sup>(٥)</sup> فكانت طاقة المسلمين به أكبر من طاقة الروم.

ثم اشتبك الجيشان على نحو لا يعلم تفصيله على التحقيق، ولنه بدأ كما تعودنا في حروب المسلمين بهجمة شعواء من جانب العدو يتزعزع لها العدد الصغير أمام العدد الكبير، ثم تكون الكرة الثانية لحمية العقيدة ومراجعة الإيمان والاعتصام بنيه الفداء.

فلما انكشف المسلمون بعد الهجمة الأولى ثابوا إلى عزماتهم بنخوة الإيمان ونخوة العرض والأنفة. فضرب النساء في وجوه الخيل قائلات: "إلى أين حماة الإسلام وطلاب الشهادة!"، وصاح عكرمة كأنه يؤنب نفسه: "قاتلت مع رسول الله في كل موطن وأفر اليوم؟ من يبائع على الموت؟" فبايعه أربعمائة من الفرسان المغاوير<sup>(٦)</sup> لا يقوم في وجههم قائم، وصدموها

---

(١) ركبوا أطراف الأسنة: كتابة من الاقتراب والتأهب لاقتحام المعركة.

(٢) الجحول: جمع جحل (بفتح الجيم) وهو اليعسوب (التحل) والنحل يطير في جماعات كثيرة.

(٣) المجنبة: جناح الجيش، وللجيش معنبتان يعنى ويسرى.

(٤) يرتجزان: ينشدان الرجز، وهو ضرب من الشعر.

(٥) السموم: الريح الحارة، والسافياء: التي تحمل ترابا كثيرا، وحمارة القيظ: شدته.

(٦) المغاوير: الشجعان.

الروم حتى صدورهم غير حافلين بما أصابهم، وقد قتل في طليعتهم عكرمة وابنه ومعظم أولئك الفرسان، ولم ينج منهم قط إلا جريح مشخن بالجراح. وأفلحت الكرة الثانية، وتقهقر الروم..

وقد اهتم خالد بالعزل بين خيل العدو ومشاته، فتضايقت الخيل وعجزت عن الجولان وولت هاربة فأخذوا لها الطريق، ورجع المشاة إلى الخنادق فلحقهم بها المسلمون، ثم أحاطوا بهم من روائهم، فشح فيهم الذعر وسقطوا وهم مولون مهولون في هوة الواقصة أو وادي الرقاد. وقيل إن موتاهم بالواقصة كانوا أكثر من قتلاهم في حومة الوغى، لأنهم قدروا بثمانين ألفا سقطوا في الوادي فرادى وجماعات. إذ كان بعضهم يقرون<sup>(١)</sup> أنفسهم في السلاسل كل عشرة في سلسلة واحدة تثبتا لأقدامهم وتأييضا من الفرار. فإذا بالوجل يقل حديد السلاسل كما فل عزائمهم القلوب، وبلغ اليأس مبلغه من أشرف القوم فقعدوا في أماكنهم ينتظرون الموت. فكأنهم قد فروا قاعدين!

وحق لهرقل وقد حبطت محاولاته جميعا بعد اليرموك أن يودع الشام إلى عاصمة المتصدع وداعا - كما قال - ليس بعده لقاء.

\*\*\*

---

(١) يقرون: يشدون، وفي القرآن الكريم "وأخريين مقرنين بالأصفاة".